الفصل الخامس

دولة السامانيين

الأحداث السياسية الرئيسية

السامانيون إحدى الأسر الحاكمة العديدة (ملوك الطوائف)، التي تولت الحكم بعد سقوط الخلافة العباسية، التي بدأ تفككها وانحلالها، كما هو معلوم، منذ الربع الأول من القرن «٩م» واستمر على هذا النحو. ونتيجة لذلك جاء الطاهريون (٨٢١ - ٨٧٣م) الى الحكم في سيسان، والسامانيون (٨١٩ - ١٠٠٥م) في بلاد ما وراء النهر وخراسان، وحتى الأمس القريب، كانوا يخدمون الخليفة بأمانة واخلاص. وانهارت الخلافة العباسية وسقطت تماماً في الربع الأول من القرن «١٠م» بنشوء الكثير من الأسر الحاكمة المستقلة في الجزئين الشرقي والغربي من الخلافة. فمثلاً انتقلت بلاد ما بين النهرين الى الهمذانيين (٩٠٥ - ١٠٠٤م)، ومصر وسوريا الى الاخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٩م)، وايران الغربية الى البوندام (٩٣٢ - ١٠٦٢م)، أما طبرستان وجرجان فقد انتقلتا إلى الضيائيين المنتمين الى الاسرة الدليمية المحلية (٥٢٧هـ - حوالي ١٠٩٠م). وبحسب التعبير المجازي للمؤرخين، لم يبق للخليفة سوى بغداد وجزء من بابل. صحيح أن جميع الحكام المحليين الذين تولوا الحكم، استمروا في الاعتراف بالخليفة باعتباره السلطة العليا (كانوا يذكرون اسمه في خطبهم، وينقشون اسمه على النقود الى جانب اسمائهم، ويشترون له الكساء والحلي، وأحياناً يرسلون له الهدايا الثمينة ويُعربون عن خضوعهم له وانضوائهم تحت لوائه)، الا أن تبعيتهم لبغداد كانت شكلية بحتة. فقد كان الخليفة يعتبر رئيس البلاد اسمياً فقط ولا يتمتع بأي سلطة فعلية.

وراء النهر تحت لوائه. وفي عام ٨٩٣م بسط نفوذه على «تاروز» و«داخونجينت» ووادي تالاس الغني بمناجم الفضة. وذكر المسعودي انه أسر آنذاك ١٥٠٠٠ شخص، كان بينهم زعيم الكارلوك. وكانت الغنائم التي استولت عليها قوات اسماعيل كثيرة جداً لدرجة أن حصة كل مقاتل منها بلغت ١٠٠٠٠ درهم. وفي السنة نفسها بسط اسماعيل سلطته على أستروشانا ايضاً.

ما من شك أن ازدياد قوة السامانيين في بلاد ما وراء النهر وتناميها، وتعاظم بأس بني الصفّار (حوالي ٨٦٧هـ، ١٤٩٥م) في سيستان وخراسان، هي أمور كانت تثير الارتياب والقلق في بغداد. فقرر الخليفة اثارة الخلاف والنزاع بين اسماعيل وعمرو بن ليث (٨٧٩ ـ ٩٠١م). ولهذا الهدف قام الخليفة المعتضد (٨٩٧ ـ ٩٠٢م)، في العام ٨٩٨م، بعزل اسماعيل، وأرسل كتاباً الى عمرو بن ليث (من بني طاهر) يعينه بموجبه حاكماً على بلاد ما وراء النهر. فوافق عمرو على تعيين الخليفة له، وسار بجيش جرار ضد اسماعيل، إلا أن الحاكم الساماني اسماعيل اعترض سبيله عند النهر، وبفضل تدابيره الحاسمة، استطاع نقل مسرح الأحداث العسكرية الى الضفة اليمنى لنهر امودار يا. وخلال معركتين (الاخيرة قرب بلخ ربيع عام ٩٠٠م) ألحق هزيمة ساحقة بخصمه. أما عمرو بن ليث نفسه، فأسره اسماعيل وأرسله الى بغداد، تعبيراً عن استهزائه بمدبر هذه الحرب. وعقب انتصار اسماعيل انتقلت أملاك بني الصفار الى السامانيين، الذين غدت حدود بلادهم في خراسان تمر في الري وقزوين.

بعد وفاة اسماعيل، خلفه ابنه أحمد الثاني (٩٠٧ ـ ٩١٤م)، إلا أنه لم يكن سياسياً محنكاً مثل أبيه، بل كان انساناً تقياً ورعاً ومولعاً بالثقافة العربية. وفي عهده عظم دور اللغة العربية والمسؤولين الذين يتقنون هذه اللغة في القصر. وأدى ذلك الى استياء الأوساط الثقافية الطاجيكية، ولا سيما الحرس التركي. واضافة الى ذلك، اندلعت حركات العصيان والثورات في أقاليم البلاد، وانتهت بمقتل أحمد الثاني على أيدي المتآمرين، الذين كان يتزعمهم الحرس التركي.

وقام رجال الدين المسلمون والقادة العسكريون الأتراك بتولية ناصر الثاني

كانت دولة السامانيين من اكبر الدول التي اقيمت على الجزء الشرقي من حطام الخلافة المتفتتة.

كان مؤسس هذه الدولة يدعى سامان خودات، من قرية سامان التابعة نقلاً عن أ. أ. سيمينوف ـ لبلخ. وكان يحظى بحماية والي خراسان العربي، أسد بن عبد الله (٧٢٥ ـ ٧٢٧، ٧٣٥ ـ ٧٣٨م). وكان المأمون قد احسن الى ابنه اسد ـ ابن سامان ـ حينما كان الاول والياً على خراسان (٨٠٩ ـ ٨١٣م). كما أحسن الى أبناء أسد: نوح، وأحمد، ويحيى والياس. وفي عام ٨٢٠م عين الثلاثة في بلاد ما وراء النهر، إذ عين نوحاً حاكماً على سمرقند، وأحمد حاكماً على فرغانة، ويحيى على شاش وأستروشانا. أما الياس فعين حاكماً على هرات. إلا أنهم كانوا تابعين لبني طاهر. ورغم ذلك، كان الأمراء السامانيون يشعرون بالاستقلال والحرية التامة، حتى إنهم كانوا يصكون النقود باسمائهم، ولهم قواتهم العسكرية الخاصة، ويضاعفون قواهم ويجمعون الثروات. كما إنهم كانوا، علاوة على ذلك، يغزون الاراضي المجاورة لهم دون الاستئذان من الخليفة أو من واليه على خراسان، يعقوب بن ليث (من بني طاهر). وهكذا، قام، في العام ٨٤٠م، حاكم سمرقند، نوح بن اسد، بحملة مظفرة على اتراك ما وراء سرداريا وبلغ ايسفيجاب (سيرام). وبعد وفاة نوح بن أسد (عام ٨٤١م)، قام والي خراسان، عبد الله بن طاهر (من بني طاهر)، بمنح سمرقند ومحافظتها الى أخوي نوح، أحمد ويحيى، وبعد ذلك آل حكم سمرقند الى ناصر بن احمد. وسرعان ما برز يعقوب الابن الآخر لأحمد، وانتقلت الى حكمه منطقتا شاش واستروشانا.

وفي القرن «٩م» ازداد الانقسام الاقطاعي حدة ولم يبق في يد ناصر بن أحمد (٨٦٥ ـ ٨٩٢م) سوى سمرقند، أما فرغانة، فكانت تحت حكم أبي الاشعث يعقوب (ابن احمد ايضاً).

وكان اسماعيل (٨٩٢ ـ ٩٠٧م)، الابن الخامس لأحمد، من أبرز أفراد الأسرة السامانية، فاستطاع القضاء على الصراع الداخلي والنزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، وحركات العصيان في قرى بخارى، ومنها باركاد وراميتان... وتوحيد ما

غدت معها الدولة عاجزة عن دفع رواتب الموظفين والحرس، الأمر الذي أثار سخطهم. وكما هو متبع في مثل هذه الاحوال، فقد قررت الدولة حل هذه الأزمة بزيادة حجم الضرائب وابتزاز الأموال. واضافة الى ذلك، لجأ الجباة إلى جباية الضرائب مسبقاً وقبل حلول موعدها. وفي هذا الصدد، ذكر المقدسي قائلاً: «انه في عهد حكم نوح بن ناصر، جبيت مسبقاً ضرائب سنة على شكل قروض، ولم تقم الدولة بتسديدها». أدت هذه العوامل كلها مجتمعة الى سخط جماهير الشعب. وحدثت حركات تمرد وعصيان. استغل أبو علي تشاغاني، حاكم خراسان، هذه الأمور كلها وقام في عام ٩٤٧م بالاستيلاء على عرش سمرقند. اما الأمير، فلم يلق دعماً من المسؤولين الكبار ولا من الجيش، وبعد أن تخلى الجميع عنه، اضطر نوح الاول للفرار الى سمرقند. وبعد ذهاب أبي علي تشاغاني الى خراسان، عاد نوح الاول الى بخارى ليعتلي العرش مجدداً، لكنه فشل في القضاء على الاقطاعيين الانفصاليين، ومنهم أبو علي تشاغاني الآنف الذكر. واستمر الاقطاعيون في نهجهم الانفصالي حتى في عهد الخليفة عبد الملك (٩٥٤ ـ ٩٦١م)، ابن نوح الاول وولي عهده.

وفي عهد عبد الملك بن نوح الاول فقدت السلطة المدنية قوتها وفعاليتها، وانتقل زمام الحكم كلياً الى يد القادة العسكريين الأتراك في شخص «حاجب بوزورغا، أي الحاجب الكبير». وعلاوة على ذلك، ونقلاً عن المؤرخ «نرشخي»، انه ما كاد يموت عبد الملك بن نوح الأول (٢٠ نوفمبر ٩٦١م)، حتى بدأت حركات التمرد في صفوف الجيش، وشملت حركات العصيان البلاد، ونقلاً عن المؤرخ: «كان كل والٍ يتصرف وكأنه ملك». وحول ذلك أيضاً، جاء في كتاب العتبي، مثلاً: «كانت غالبية الاقاليم تحت سلطة المتمردين، وتقلصت ايرادات الحكومة ومداخيلها، وتجرأ العسكريون على مضايقة السكان، وانتقلت السلطة الى الاتراك، ولم تعد قرارات الوزراء سارية المفعول. باختصار، إنه نتيجة لتفاقم الصراع بين الاقطاعيين، حتى أواسط التسعينات (ق١٠م)، فقدت دولة السامانيين الكثير من أملاكها: كوهستان، وساغانين، وبلخ، وهرات وخوارزم. وفي عام ٩٨٧م، وقعت جميع الاقاليم، الواقعة جنوب أموداريا تحت حكم الأمير التركي ابي علي بن أبي الحسن سيمجوري، ثم

(٩١٤ ـ ٩٤٣م)، ابن أحمد الثاني، ابن اسماعيل وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره. وبما أن الأمير لم يكن قد بلغ سن الرشد، فقد استلم زمام الحكم الوزير المشهور بحنكته ومراسه، أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، الذي بذل قصارى جهوده لتوطيد الأمن والاستقرار والنظام في البلاد، ونجح في القضاء على حركة التمرد التي قام بها أبو صالح منصور بن اسحق في سمرقند، ولكن الثورات والانتفاضات أخذت تندلع تباعاً في الأقاليم الأخرى. وفي تلك السنة (٩١٤م) اندلعت انتفاضة حسين بن علي مركزي، ولم يُقض عليها إلاّ في العام ٩١٨م. ولم تمض سنة، حتى قامت ثورة تزعمها أحمد، الشخصية الاقطاعية الكبيرة، وذو النفوذ. لم تكن الثورات والانتفاضات مقتصرة على المركز، بل كانت تحدث في الاقاليم الشرقية من البلاد ايضاً. فمثلاً، جرت انتفاضة الياس بن اسحق في عام ٩٢٢م.

واخذت حركة لقبت بالقرامطة، تقوّض أركان الدولة السامانية من داخلها، وهي حركة اجتماعية موجهة ضد الاسلام القديم، تدحض فكرة اضفاء الطابع الاقطاعي على المجتمع، وتحمل رايتها شعاراً ينادي باحياء تقاليد الماضي والعودة الى المشاعية الريفية. وانضم الى الحركة فئات متعددة من طبقات المجتمع: الريفيون، الذين كانت شائعة بينهم فكرة إعادة المشاعية الريفية وتحديد طبقات المجتمع المدني. وكانت فكرة حركة القرامطة تحظى بدعم الأمير نفسه، الأمر الذي أثار سخط رجال الدين المسلمين وزعماء الحرس التركي، وأدى بالتالي الى اضطرار ناصر الثاني ابن احمد إلى اعتزال العرش. ثم قيد بالسلاسل وسجن في القلعة.

اعتلى ابن ناصر الثاني نوح الأول العرش (٩٤٣ ـ ٩٥٤). امتاز عهده بحملته الشديدة على القرامطة في كل مكان. أما زعيم حركة القرامطة، محمد بن أحمد ناخشاتي فقد ألقي القبض عليه وأعدم شنقاً بناء على أمر من الأمير. الا أن نوحاً الأول اخفق في القضاء كلياً على القرامطة، الذين استمرت حركتهم مدة طويلة في بلاد ما وراء النهر وخراسان.

وفي عهد نوح الأول ابن نصر، بالتحديد، ظهرت أمارات انحلال دولة السامانيين وانهيارها. وإبّان حكمه نهبت خزينة الدولة، ما أدى الى أزمة مالية حادة،

تيغين الآنف ذكره، والذي عين حاكماً على خراسان إبان حكم نوح الاول. وكان الب ـ تيغين، كما تشير المصادر التاريخية، يتمتع بثروة طائلة، أتاحت له القدرة على تقرير مصير دولة السامانيين. وذكر المؤرخ المشهور نظام الملوك، في كتابه «سياسة نامه» ما يلي: «كانت له (أي الب ـ تيغين ب.أ) في خراسان وما وراء النهر، أملاك وعقارات في ٥٠٠ قرية، ولم تكن ثمة مدينة إلا وله فيها قصر، وبستان، وخان وحمّام، كذلك كان لديه العديد من مخازن الحبوب. وفي عهد السامانيين كان يملك الآلاف من رؤوس الغنم، ومئات الألوف من الخيل والجمال والبغال. كما تجدر الأشارة إلى ما ذكره «نظام الملوك» فيما يتعلق بهذا الرجل ذي الشأن العظيم، إذ قال: «لما توفي أمير خراسان، نوح بن منصور، كان الب ـ تيغين في نيسابور. وكتب المقربون من الأمير (نوح بن منصور) رسالة من العاصمة بخارى، موجهة الى الب ـ تيغين جاء فيها: «لقد توفي أمير خراسان (وما وراء النهر)، وبقي من بعده أخوه (٣٠ سنة) وابنه (١٦ سنة)، وسنُجلس على عرش البلاد أيهما تراه جديراً، إذ إنك ركيزة البلاد». فكتب الب ـ تيغين رسالة جوابية بعثها مع الساعي، وجاء فيها: «كلاهما جدير بالعرش والملك، ... إلا أن الأخ، رجل بالغ وذو خبرة ومراس... أما الابن، فما يزال صغيراً، لا حنكة له... أرجو إجلاس الأخ على العرش». وهكذا نستنتج من هذه الفقرة المشار اليها اعلاه، ان القادة العسكريين الاتراك كانوا، بفضل ثرواتهم الطائلة وسيطرتهم على الجيش، يلعبون دوراً حاسماً في شؤون إدارة دولة السامانيين.

في أيام حكم السامانيين في خراسان وما وراء النهر، كانت ملكية الاقطاعات على النحو التالي:

الملك السلطاني (أو ملك المملكة): الأراضي والأملاك الأخرى العائدة للأمير (أو الحاكم) نفسه، كانت أكبر حجماً من غيرها، يقوم على خدمتها عامة سكان الريف بموجب نظام حصة الايجار، ويشرف على إدارتها ديوان خاص بالضرائب والغرامات النقدية يُعرف بديوان الدِّيَة.

أراضي الملكية الخاصة (الملك): وتتألف من الاراضي التابعة لأفراد الأسرة الحاكمة، الدهاقنة (الاقطاعيين)، السادة، ممثلي الحرس التركي وكبار التجار.

وقعت منذ العام ٩٩٧م تحت حكم سابوك ـ تيغين، مؤسس أسرة الغزنويين الحاكمة. كما فقد السامانيون السلطة على أقاليم سرداريا التركية: اسفيجاب، ميرك وغيرهما.

وإبان حكم خلفاء عبد الملك: منصور الأول (٩٦١ ـ ٩٧٦م)، نوح الثاني (٩٧٦ ـ ٩٩٧م) وغيرهما، جرت حركات تمرد وعصيان شعبية، أجهزت كلياً على الدولة السامانية المتداعية. وفي إحدى هذه الحركات جرى إحراق قصر أمير بخارى الرائع.

لدى التطرق الى زوال الدولة السامانية، ينبغي ألاّ ننسى الدور المهم للحركة العدوانية التركية القاراخانية من ناحية كاشغار وسيميريتشي، التي عجلت في عملية انتهاء دولة السامانيين.

على أن السبب الرئيسي لسقوط الدولة السامانية يكمن في جوهر المجتمع نفسه : اولاً، في تطور النظام الاقطاعي، وفي ظروف التحول الاقطاعي المطّرد للمجتمع، الأمر الذي عزز الاتجاه نحو استقلالية الاقطاعيين. ثانيا، دعم حركة القرامطة والإفراط في الاهتمام بالحياة العلمانية في الوقت نفسه، ثالثاً، فقد السامانيون تأييد رجال الدين المسلمين.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية

كانت الطبقة السائدة في المجتمع تتألف من الأمراء السامانيين وأعضاء أسرهم، والشيوخ الاقطاعيين، وكبار رجال الدين، وكبار رجال الحرس التركي (القادة العسكريين)، أمثال: الب ـ تيغين، وسابوك ـ تيغين، وأبي علي سيمجوري، فايق وغيرهم، وكبار التجار. وكانت الطبقة السائدة، المستولية على الأراضي الشاسعة ومصادر المياه والثروات المحلية، تستغل الكادحين بصورة وحشية: الفلاحين والشركاء وفقراء المدن، وتعيش في رفاهية على حساب كدهم وجهدهم. لقد لعب الوجهاء الاقطاعيون دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية السياسية، وكانوا يتألفون من رجال الدين المسلمين، ومن كبار رجال الحرس التركي بشكل خاص، أمثال الب ـ

والسفرجل والخوخ والتين والبطيخ بنوعيه الأحمر والأصفر... إلخ.

وكانت الصناعات اليدوية والتجارة تحتل مكانة في اقتصاد ما وراء النهر وخراسان، يمارسها سكان القرى والمدن على حد سواء. كانت الصناعات متطورة ولا سيما في مدن البلاد الكبيرة: بخارى، وسمرقند، وشاش، وجرجيانج، وبلخ، هرات، ومرو، ونيسابور وغيرها. ودون الاسهاب في التفاصيل، نقول باختصار ان الصناعات في آسيا الوسطى كانت تفي بحاجات السوق المحلية، وترسل المصنوعات الى الأسواق الخارجية. وكانت الصادرات تحتل مكانة هامة في التجارة، وذلك يؤكده ما ذكره المقدسي عن قائمة الصادرات التي أوردها قائلاً: «أمّا فيما يتعلق بالبضائع، فتصدر منها ما يلي: «من ترمذ ـ القوارب والصابون وطرحات العرائس، ومن بخارى ـ الاقمشة الناعمة، والسجاجيد، والبسط، وأقمشة لتغطية أرضيات الأنزال (جمع نزل)، والمصابيح النحاسية، وأحزمة السروج، والأقمشة الأشمونية، والشحوم، وأصواف الغنم، وزيوت الشعر، ومن كيرمين ـ المناشف، ومن دبوسيا ووردار[1] ـ الأقمشة الودارية التي تبدو وكأنها مصنوعة من قطعة واحدة. وسمعت أحد السلاطين في بغداد يقول عنها «دِيْباج خراساني»، ومن رابينجان[2] ـ معاطف من فراء الضأن حمراء اللون، وسجاجيد للصلاة و أوانٍ من القصدير، جلود، قنب متين وكبريت، ومن خوارزم ـ فراء السمامير والقاقوم والقندس والظرابين وبنات عرس، والسناسير والثعالب والأرانب والماعز، والشمع، والسهام، وقشرة البتولا، والقبعات المدببة الرؤوس، وصمغ السمك، وزيت الخروع، وأسنان السمك، وعنبر، وجلود خيول مصنعة، وعسل، وجوز مقشر، وصقور وسيوف ودروع، وقشرة شجر الجلبخ، والعبيد السلاقيين والأغنام والبقر ـ كل هذه الأشياء كان الخوارزميون يحصلون عليها من بلغار ـ، وعلاوة على ذلك، العنب، والزبيب، والكعك باللوز، والسمسم، والجوخ المقلم، والبسط، وقطع كبيرة من الجوخ والخيش مخصصة للهدايا، واغطية من قماش الملحم، والقفول، وأقمشة أرانج، ورماح، ومصول،

---

١ ـ دبوسيا و وردار ـ قريتان تابعتان لسمرقند.

٢ ـ مدينة من مدن القرون الوسطى شمال غرب سمرقند، وتبعد عن كوشاني بفرسخين.

أراضي الأوقاف (الوقف): وهي الأراضي والعقارات الأخرى (الحوانيت، «المتاجر» والمطاحن الخ...) الممنوحة لملاكيها لخدمة المؤسسات الدينية، والمساجد، والمدارس والمزارات الاسلامية، والخاناقات (مأوى الدراويش).

الاراضي العامة: وتعود ملكيتها لعامة أهل الريف (المراعي، والغابات الخ.) وكانت هذه الأراضي كافة، تنقسم، من حيث الضرائب المفروضة عليها، الى ما يلي:

- ملك الخراج (أراضي الخراج): تشمل «الملك السلطاني» أراضي الملكية الخاصة (الملك)، وقسماً من أراضي الأوقاف. وكان حجم الخراج يقدر بناءً على مدى خصوبة الأرض، وموقعها من المدينة، وحجم الايرادات التي تم الحصول عليها.

- ملك حر خالص (الاراضي المبيّضة): وهي معفية من الضرائب جزئياً أو كلياً، وتشمل أراضي السادة، كبار علماء المسلمين وغيرهم من ذوي الامتيازات.

- أراضي الاقطاع: وهي الأراضي المقتطعة من (الملك السلطاني) والممنوحة لأبناء الأمير أو الملك ولكبار رجالات الدولة والقادة مقابل الخدمات الجليلة التي قدموها للعرش. كان الاقطاعيون، يتمتعون بحصانات تعفيهم من الضرائب وتخوّلهم البت في المسائل القضائية. وبعبارة أخرى، كان يحق لهم الاحتفاظ لأنفسهم بجزء من إيرادات أراضيهم او بأكملها، ومحاكمة المواطنين والبت في قضاياهم.

إن غياب العمليات العسكرية الكبيرة في منطقة ما وراء النهر، والاستقرار النسبي في البلاد، وتنسيق الجهاز الحكومي المركزي، هي عوامل ساعدت على التطور الاقتصادي والصناعي والتجاري والثقافي.

في مناطق البلاد الرئيسة مثل وادي زرافشان وفرغانة، وشاش وايلاك وخوارزم، ونقلاً عن المقدسي والاسطخري وابن حوقل وغيرهم من الجغرافيين الناطقين باللغة العربية، فإن الزراعة والبستنة كانتا متطورتين، واشتهرت هذه المنطقة بزراعة القرعيات والحبوب كالقمح والشعير والأرز والدخن والعدس والحمص والبازيلا والسمسم والقنب والقطن والعنب والرمان والكرز والتفاح

وفي ق ٩ ـ ١٠م، كانت بلاد ما وراء النهر مشهورة في «صناعة» التعدين أيضاً، إذ ذكر الجغرافيون العرب (الاسطخري، وابن حوقل، والمقدسي وغيرهم) أنه كانت تستخرج الفضة، والكبريت، والرصاص، والذهب، والنحاس، والفيروز، والحديد الخام، والفحم الحجري، والنفط، والملح وغيرها من المعادن.

كانت مدن آسيا الوسطى، في تلك الفترة، ذات صلة تجارية ببلدان الشرقين الأدنى والأوسط وحوض الفولغا والصين، حيث كانت تذهب إليها وتأتي منها القوافل التجارية. وفي هذا الصدد، نجد مواد غنية في مؤلفات خورداذبيخ، والمسعودي، وابن فضلان، وغارديزي وغيرهم، وكذلك في مواد الحفريات الأثرية، التي جرت في العصر الحديث في خوارزم وحوض الفولغا وجنوب أوزبكستان.

نظام الحكم في دولة السامانيين

بسط السامانيون سلطتهم على مساحات شاسعة (ما وراء النهر وخراسان وحتى الري وقزوين) بمساعدة جهاز حكومي ضخم جيد التنسيق.

كان على رأس الدولة أمير يتمتع بسلطة مطلقة لا حدود لها ولا يشعر بالمسؤولية إلا أمام الله. أما عن نظام الدولة الاداري، فقد تحدث عنه بمزيد من التفصيل الاكاديمي ف. ف. بارتولد، وكان على النحو التالي:

الهيئة الادارية، وكانت تتألف من قسمين: قصر الحاكم الأعلى (دارغاخ)، والدواوين الحكومية.

قبل التطرق إلى بنية الـ (دارغاخ) وواجباته، و الدواوين، نود التنويه بالدور المهم الذي لعبه حرس الأمير الخاص في الحياة الاجتماعية السياسية. قوام الحرس من الغلمان الأتراك ورئيسهم. وهؤلاء تمتّعوا بمناصب حكومية مهمة، يحصل عليها الغلمان الاتراك بعد سنوات طويلة من الخدمة بجد ودأب. واليك كيف كانت تبدو عملية خدمة الغلمان الاتراك في الوصف المفصل الذي أورده نظام الملوك في كتابه «سياسة نامه»: «درجت العادة منذ أيام السامانيين، على اتباع القاعدة التالية: كانت ترقية الغلام تتم تدريجاً ووفق حجم عمله وخدماته وجدارته. وبعد شراء الغلام،

واسماك، وقوارب. ومن سمرقند ـ أقمشة فضية (سمغون)، وقدور سمرقندية كبيرة نحاسية، وكؤوس رائعة، وخيام، وركب الجياد، ولجامات، وأحزمة، ومن جيزاك ـ أصواف وملابس صوفية فاخرة، ومن بيكانات ـ اقمشة تركستانية، ومن شاش ـ سروج عالية من جلود الخيول، وجعاب،وخيام، وجلود مجلوبة من بلاد الاتراك(مجزأة)، ومماطر، وسجاجيد للصلاة، وكتيفات، وقمح، ورماح ممتازة، وابر، وأقمشة قطنية مرسلة الى الاتراك، واقمشة حمراء مشهورة بالاقمشة الممرجلة، والأقمشة السميكة، والحرير والملابس الحريرية، والجوز المقشور وغير المقشور، ومن فرغانة واسفيجاب ـ العبيد الاتراك، والاقمشة البيضاء، والمعدات الحربية، والسيوف، والنحاس، والحديد، ومن ترمذ ـ صوف الماعز، ومن شيلجي ـ الفضة، ومن تركستان كانت تساق الى هنا الخيول والبغال وهكذا ايضاً من «ختّال». لا مثيل للحوم البخارية، والبطيخ البخاري الأصفر المعروف باسم «الشاك»، والسهام الخوارزمية، والأواني الشاشية «المصنوعة في شاش»، والورق السمرقندي». وكان ابن حوقل، لدى اشارته الى السلع المستوردة من آسيا الوسطى، قد أشار، بشكل خاص، الى القماش الورداري[٣] الذي أشار إليه المقدسي آنفاً. ونقلاً عن المؤرخ ابن جوقل، كان هذا القماش يلبس «قطعاً كاملة دون قص». «ولا يوجد في خراسان أمير أو وزير أو قاض أو ثري أو إنسان بسيط أو مقاتل ـ يستطرد ابن حوقل ـ إلاّ وارتدى الأقمشة الوردارية فوق ثيابه الشتوية. كان ذلك يعتبر نوعاً من الاناقة واللياقة، إذ كان لون القماش مائلاً الى الصفرة، والقماش نفسه كان ناعماً مريحاً وسميكاً، ويبلغ ثمن القطعة منه من دينارين الى عشرين ديناراً. وغير مرة ارتديت مثل هذا القماش (خلال) خمسة أعوام. كانت ترسل الطلبات من العراق، وتصدر مثل هذه الاقمشة الى هناك، حيث يتباهون بارتدائها». وتجدر الاشارة هنا الى ما ذكره المؤرخ نرشخي عن ورشة التطريز بالذهب (بيت الطراز ـ بيت الشعوب) في بخارى، الواقعة بين القلعة وشهرستان، قرب الجامع، والتي (أي الورشة) كانت تنتج البسط الفاخرة، والستائر، وسجاجيد الصلاة والثياب الفخمة المطرزة بالذهب. وكما نرى من الحديث اللاحق، فقد كانت هذه الورشة تعمل خصيصاً لتلبية حاجات القصر.

---

٣ ـ الورداري ـ نسبة إلى قرية وردار القريبة من سمرقند.

على عاتقه مسؤولية الاشراف على رجال البلاط كافة. أما المتفوقون منهم، فكانوا يعينون حكاماً لبعض الاقاليم.

وكان المنصب الثاني من حيث الأهمية، بعد الـ «حاجب بوزورغ ـ الحاجب الكبير» منصب «صاحب ـ حرس (قائد حرس البلاط)». وكما هو معروف، كان هذا المنصب موجوداً في عهد الأمويين والعباسيين، وبموجبه ينفذ قائد حرس البلاط أوامر الحاكم الأعلى. واليك ما ذكره نظام الملوك عن صاحب هذا المنصب وواجباته:«كان منصب أمير الحرس، دائماً، من أهم المناصب بعد منصب الأمير والحاجب الكبير، ففي البلاط لم يكن هناك من هو أعلى منصباً من أمير الحرس، ذلك أن لمنصبه علاقة بالتنكيل... وكان لدى أمير الحرس دائماً طبل وعلم ونوبة حراسة. حتى ان الناس كانوا يهابونه أكثر مما يهابون السلطان». ويقول نظام الملوك نقلاً عن الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) إنه قال: «لديّ أميرا حرس. وكلاهما لا شأن له، منذ الفجر وحتى الليل، سوى قطع الرؤوس والأيدي والأرجل والضرب بالهراوات والزج في السجون».

وكان يدير الشؤون الاقتصادية لـ «الدارغاخ» رجل بمنصب «وكيل». وفي هذا الصدد، يقول نظام الملوك موضحاً:«كان هذا المنصب يناط دائماً برجل ثقة مشهور، يعهد اليه بشؤون المطبخ، وقبو الخمر، والاسطبل، وقصور السلطان وأبنائه ورجال البلاط، ويتوجب عليه الحضور شهرياً وأحياناً، يومياً، الى المجلس السلطاني الرفيع والتحدث إليه والمثول دائماً لتقديم التقارير، وإبداء رأيه فيما يجري في البلاد وتقديم كشف بكل ما يقدمه ويحصل عليه الى المقام السامي.

المنصب الرفيع التالي ـ خوجائي بوزورغ (السيد الكبير)، وهو رئيس الاجهزة البيروقراطية ورجال القصر كافة.

وعلاوة على ذلك، كان في الـ«الدارغاخ» عدد كبير من المستخدمين الصغار مثل الخدم والبوابين والحشم والفراشين ...الخ.

وكانت ادارة هذا الجهاز البيروقراطي بكامله تتم بواسطة عشرة دواوين منتشرة حول ريجيستان بخارى. ونقلاً عن المؤرخ نرشخي، فإنها كانت تتألف من

كانوا يأمرونه بالخدمة في المشاة مدة سنة ويمشي (على الاقدام) ضمن الحاشية، مرتدياً «كابا»[٤] من صنع «زنداناتشي»[٥]. وبذلك كانوا يمنعون الغلام من امتطاء الخيل، سرّاً أو علانية، طيلة هذه السنة. واذا اكتشفوا مخالفته هذا المنع عاقبوه[٦]. ولدى خدمته تلك السنة على هذا النحو، كان الـ «فيساك ـ باشي» يخبر الحاجب[٧]، ويأمر الأخير له بفرس تركي ذي لجام وحزام عادي بسيط. وبعد مرور سنة على خدمته ممتطياً جواده وحاملاً السوط، كانوا يمنحونه «كاراجور»[٨] ليتمنطق به. وفي السنة الخامسة كان يمنح سرجاً افضل ولجاماً مزوّداً بنجوم، «وكابا» من صنع داراي وصولجاناً ليعلق على الطوق. وفي السنة السادسة كان يتلقى ثياباً ولقباً، وفي السابعة خيمة ذات رأس واحد و١٦ إسفيناً، وكان يُقبل في مجموعته ثلاثة غلمان، ويطلق عليه لقب «فيساك ـ باشي». كان يعتمر قبعة لبادية سوداء مطرزة بالفضة، «وكابا» غانجية».

وهكذا، ومع مرور كل سنة، كانت تزداد مكانته وزينته و يزداد عدد مجموعته وتعلو رتبته حتى يصبح «خيل باشي»[٩] ومهما بلغت مكانته وخدماته ومآثره، كان يمتاز بلطفه مع الناس وولائه لسيده، ولا يمنح منصب الامارة ولا يحصل على ضيعة الا بعد بلوغه السابعة والثلاثين من عمره.

أما الآن فسنتحدث عن الرتب والألقاب وواجبات حامليها.

يعد منصب الـ «حاجب بوزورغ ـ الحاجب الكبير» من أول المناصب المهمة لرجال الحاشية او البلاط في حياة الغلام التركي وفي واجباته. وهذا المنصب يلقي

---

٤ ـ كابا ـ ثياب فوقية تشبه القمصول.

٥ ـ زانداناتشي ـ قرية تابعة لبخارى.

٦ ـ فيساك ـ باشي ـ آمر صغير مسؤول عن ثلاثة غلمان.

٧ ـ حاجب ـ اعلى رتب الغلام ـ الحارس.

٨ ـ كاراجور ـ سيف طويل.

٩ ـ خيل باشي ـ الرتبة التي تلي الحاجب.

تطور العلوم والثقافة

إن مركزة البلاد، والنهضة الاقتصادية والسياسية ، قد ساعدتا على تطوّر العلوم والثقافة في بلاد ما وراء النهر وخراسان في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

والدليل على تطور العلوم أن صفحات التاريخ احتفظت باسماء الكثير من العلماء البارزين، الذين تركوا من بعدهم مؤلفات ضخمة قيمة في مختلف فروع العلوم في القرون الوسطى: التاريخ، والفلسفة، والادب، والفقه، والرياضيات، والفلك والطب.

ومن المؤرخين نذكر أبا علي حسين بن أحمد السلامي، صاحب «كتاب في أخبار ولاة خراسان» الذي كان واحداً من المصادر التي اعتمد عليها غرديزي (ق - ١١م) في تأليف كتابه «زين الاخبار»، و ابن الاثير (١١٦٠ - ١٢٣٤م)، الجويني (١٢٢٦ - ١٢٨٣م)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان البخاري (المتوفى عام ٩٢٤م)، وابو بكر محمد بن جعفر النرشخي (المتوفى عام ٩٥٩م)، الذين ألّفوا كتباً بعنوان «تاريخ بخارى»، وأبو سعيد عبد الرحمن بن محمد الادريسي (المتوفى عام ١٠١٥م) والذي «كتب تاريخ مدينة سمرقند المعروف باسم «كتاب الاكمال لمعرفة الرجال، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله البائي الحكيم النيسابوري (المتوفى عام ١٠١٤م) - صاحب «كتاب أحوال نيسابور» الذي يضم ٨ مجلدات، وابو الحارث بن حمدوي الفيرسوني (المتوفى عام ٩٢٧م)، مؤلف الكتاب القيم في التاريخ «كتاب المفاخرات - اهل آل كيش وآل نسف»، وأخيراً أبو محمد بن سعيد بن القاضي (المتوفى عام ٩٥٧م) مؤلف تاريخ خوارزم القديم «تواريخ خوارزم منها الكافي» وهنا لابد من الاشارة الى الصيغة الفارسية لمؤلف المؤرخ المشهور الطبري، التي أنجزها أبو علي محمد بلخ (المتوفى عام ٩٧٤م) - وزير عبد الملك الأول ومنصور الأول السامانيين - والتي اصدرت وترجمت غير مرة.

كذلك كانت علوم الجغرافيا متطورة في عهد السامانيين، وكان من بين

الدواوين التالية:

١ ـ ديواني وزير: أي ديوان كبير الوزراء.

٢ ـ ديواني ـ مستوفي: ديوان خزينة الدولة أو الادارة المالية.

٣ ـ ديوان عميد الملك: ديوان عماد الدولة، أي ديوان العلاقات الخارجية أو ديوان الإنشاء.

٤ ـ ديواني ـ صاحب شورات: ديوان قائد الحرس الأميري، أي المؤسسة العسكرية.

٥ ـ ديواني صاحب بريد: ديوان الخدمات البريدية، أي مؤسسة المواصلات.

٦ ـ ديواني مشرف: الديوان السلطاني (أو الأميري) الخاص للرقابة، ومن ضمن واجباته «معرفة كل ما يجري في الـ «دارغاخ ـ قصر الحاكم الأعلى» وإطلاع (السلطان والأمير) بذلك عند الضرورة».

٧ ـ ديوان الضِّياع: ديوان يشرف على إدارة ضياع الامير أي ملك السلطان وعقاراته.

٨ ـ ديوان المحتسب: الديوان الحكومي لمراقبة النظام في الطرق والأماكن العامة.

٩ ـ ديواني وقف: ديوان يشرف على أملاك الأوقاف وعقاراتها.

١٠ ـ ديوان القضاة: مؤسسة حقوقية (المحكمة العليا).

وفي الحقيقة كانت ثمة مناصب: الوزير الاعظم، والوزير، مستوفي مماليك (كبير المستوفين) ومستوفي، وعميد الملوك، وصاحب شورات، وصاحب بريد، ومشرف، قاضي القضاة والخ... وفي الاقاليم المحلية، كانت السلطة بيد الـ «سيناخ سالار» كبار القادة العسكريين (في الأقاليم الكبيرة) وبيد الحكام (في المناطق الإدارية الصغيرة).

٩٤٣م)، وخريج عرب ـ اتا في قرية «تيم» (عام ٩٧٨م)، وقصر السامانيين في افراسياب (ق ـ ١٠م)، والقصر الريفي «كرك ـ كيز» في ترمذ القديمة (ق ـ ١٠م) وغيرها.

وفي عهد السامانيين تطور الادب والشعر تطوراً ملحوظاً، وتذكر المصادر (عوفي دولت شاه وآخرون غيره) أسماء ما يقارب الثلاثين من الادباء البارزين. ومن دون التطرق الى التفاصيل ، نشير الى انه خلافا للادب العلمي، انتقل الشعر الى اللغة الفارسية ـ الدارية وكان من خصائصه الأخرى، كما قال ي. ا. بيرتيلس آنذاك: «ان الشعراء، بل العلماء الآخرين كافة، كانوا مضطرين للعيش «في قصور الاثرياء، لانه لم يكن لديهم حل آخر، ذلك أنهم هناك فقط كانوا قادرين على كسب قوت عيشهم». ما أثر على المضامين الروحية والفكرية لهذه الاشعار.

باختصار، كان هؤلاء يمدحون في أشعارهم الطبقة الحاكمة، الملوك والامراء والقادة العسكريين، ويجزلون الثناء على شجاعتهم وكرمهم وانجازاتهم. وعلى الرغم من ذلك، وبفضل المواهب الشعرية الرفيعة، فقد ترك بعضهم آثاراً ملحوظة في تاريخ الادب الفارسي الطاجيكي. وحسبنا هنا ذكر اسماء أبي عبد الله جعفر بن محمد روداكي السمرقندي (تقريباً ٨٥٥ ـ ٨٦٠، ٩٤٠م)، شاهدي البلخي ـ تلميذ روداكي وفنان القصيدة والشعر الهجائي، وأبي زراع غورغاني، وأبي شكور البلخي (المولود عام ٩١٦)، مؤلف مجموعة الحكايات التربوية «افاريق نامه» («كتاب المديح»)، ابي طاهر الطيب بن محمد الخسرواني الفنان البارع في الاغاني العاطفية الفكاهية، أبي منصور محمد بن أحمد دقيقي (المتوفى عام ٩٧٧)، شاعر العاطفة المرهفة في عصره، وأول من حاول كتابة «شاهنامة».

هنا ينبغي القول انه في مدن ما وراء النهر وخراسان (بخارى، نسف، مرو، هرات وغيرها من المدن) كانت كتابة الاشعار باللغة العربية تتطوّر جنباً إلى جنب مع تلك التي تنظم بالفارسية، وتتوافر عنها معلومات قيمة في الجزء الرابع من مجموعة المختارات الشعرية للثعالبي (٩٦١ ـ ١٠٣٨)«يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر».

جغرافيي تلك الفترة أبو زيد بن سهل البلخي (٨٥٠ ـ ٩٣٤)، مؤسس المدرسة الكلاسيكية الفارسية، والذي وضع زهاء ٦٠ مؤلفاً في الجغرافيا والفلك ولم يبق سوى أسماء نصفها: «تقويم البلدان»، «صور الاقاليم» (صور الاقاليم السبع)، «مسالك الممالك»، «اشكال البلاد»، و«كتاب البديع والتاريخ». وكان بالامكان ان يحتل، بين المؤلفات الجغرافية في عهد السامانيين، مكانة هامة، المؤلف الجغرافي والوزير ـ راعي العلوم، الذي قام في عهده برعاية أبي زيد البلخي السالف ذكره والرحالة ابن دليفة (ق ١٠م)، والرحالة الشهير ابن فضلان (ق ١٠م) أبي عبد الله محمد بن احمد بن نصر الدين جيحاني (نهاية ق ٩ ـ النصف الاول من ق ١٠م). يبدو ان مؤلف الجيحاني كان يحمل اسماً تقليدياً «غرائب الدنيا»، «عجائب البلدان» او شيئاً من هذا القبيل. وتأكيداً لذلك بالامكان الاستشهاد بالكلمات التالية للمسعودي: «لقد وضع الجيحاني.... كتاباً يشتمل وصفاً للعالم وأخباراً عنه وعن عجائبه وعن المدن والعواصم والبحار والانهار والشعوب واماكن عيشها، وغيرها من الاخبار والرحلات المدهشة المثيرة».

وفي ايام السامانيين تطورت في ما وراء النهر وخراسان تطوراً عظيماً،العلومُ الطبيعية: الرياضيات، الفلك، والطب وغيرها. وفي الفترة (من ق ٩ ـ ق ١٠م) ظهر علماء بارزون أمثال ابي عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٧ ـ ٨٥٠م)، الذي وضع علوم الجبر وألّف «كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة»، و«الكتاب في حساب الهند»، و«كتاب صورة الأرض» وغيرها من المؤلفات، واحمد الفرغاني (المتوفى عام ٨٦١م) وله مجموعة مؤلفات في الفلك: «الحركات السماوية»، «جوامع علم النجوم»، «مدخل النجوم»، «الكامل في علم التنجيم» الخ...

وفي عصر السامانيين، برز علماء الموسوعات العظام: أبو نصر الفارابي (٨٧٣ ـ ٩٥٠م)، أبو ريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨م) وابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م).

إنّ تطور علوم الرياضيات، ولا سيما الهندسة التي تعد من أهم فروعها، قد أدى الى ازدياد الخبرة والتجارب، ومكّن المعماريين الجدد من القدرة على التخطيط بدقة متناهية وبناء المنشآت التذكارية مثل ضريح السامانيين الرائع في بخارى (٨٩٢ ـ

الفصل السادس

ما وراء النهر في عهد القاراخانيين

أصل القاراخانيين، ونشأة دولتهم، التي لعبت، كما هو معلوم، دوراً كبيراً في مصائر شعوب آسيا الوسطى:

شعوب تركستان الشرقية وسيميريتشي وما وراء النهر وخراسان، شعوب لا نعرف عنها سوى القليل. أما فيما يتعلق بأصل أسرة القاراخانيين، فلدى العلماء المستشرقين آراء شتى متضاربة أحياناً. فمثلاً، يقول ف. ف. غريغوريف، ن. أ. اريستوف، س. غ. كلاشتورني، وف. غريونارد، إنهم (أي القاراخانيين) من سلالة الكارلوكيين، أما أ. بريتساك، ومحمد فؤاد كوبريوليو ـ زاده وغيرهما، فيقولون إنهم ينتمون الى قبيلتي «تشيغيل» و«ياغما»، اللتين تعدان من القبائل الكارلوكية والـ «توكوز ـ اوغوز» ذات النفوذ القوي. ويعتقد الأكاديمي ف. ف. بارتولد في عدد من مؤلفاته (ن. ا. اريستوف. ملاحظات عن اصل القبائل التركية والشعوب، ومعلومات عن عدد أفرادها، ١٢ محاضرة في تاريخ الشعوب التركية في آسيا الوسطى، الوضع الحالي والواجبات القريبة لدراسة تاريخ الشعوب التركية، وغيرها) أن خانات هذه السلالة من الكارلوكيين الـ «ياغما» و «تشيغيل». أما ا. ك. كارايف الذي أجرى دراسة خاصة حول هذه المسألة في الفترة الأخيرة، فيعتبر أن الدور الرئيسي الحاسم في قيام دولة القاراخانيين يعود الى قبيلة الـ«تشيغيل» ـ احدى فروع الكارلوكيين الذين قطنوا تيان ـ شان الوسطى في ق. ٩ ـ ١٠م (تاريخ الخاقانية القاراخانية، فرونزه، ١٩٨٣م).

وذلك استناداً لما اثبته أ. بريتساك، بانه قبل ساتوك بوغرا ـ خان حكم البلاد والده أرسلان ـ خان بازير وعمه قادر ـ خان أغولتشاك. وكان الأول هو الحاكم الأعلى، ومقره في «بالاساغون» (مدينة بولان) في وادي نهر «تشو»، أما الثاني، فكان في «تاراز» بصفة مساعد او مشارك له في الحكم، ولا بد أنه من معاصري اسماعيل بن احمد الساماني (٨٩٢ ـ ٩٠٧م). وبالتحديد في عهد قادر ـ خان أغولتشاك، احتل اسماعيل بن احمد في العام ٨٩٣م «تاراز»، وأسر زوجته و١٥٠٠٠ من جنوده، وبعد ذلك نقل أغولتشاك عاصمته من «تاراز» الى «كاشغار».

كان القاراخانيون في شمال شرق «تيان ـ شان» في حالة حرب مع قبائل «باسميل» القاطنة في «بيشباليك» (قرب غوتشجين)» المؤلفة من ٤٠ عشيرة، وفي الشمال في حالة حرب مع قبائل «يماك» في وادي «ايريتش». لكن أخطر أعدائهم كانت قبائل «ياباكو»، التي تعيش في الشمال الشرقي بجوار قبائل« باسميل» في مكان ما في وادي «اميل».

باختصار، لقد فرض القاراخانيون سيادتهم كلياً على تيان ـ شان الوسطى وسيميريتشي حتى تسعينات القرن «١٠م». ففي الجهة الجنوبية الشرقية امتدت مملكتهم حتى نهر «تشيرتشين» وكانت حدودهم الشمالية الشرقية تكاد تمر بخط«بلخش»، ساسيك ـ كول وآلا ـ كول، أما الشرقية، فكانت تمر بخط نهر تشيرتشين، غرب مدينة «كوتش» بحيرة ساسيك ـ كول وآلا ـ كول. وأما الحدود الغربية فكانت تمر بوادي «تالاس».

وبعد تثبيت أقدامهم في «تيان ـ شان» الوسطى وسيميريتشي، اتجهت انظار القاراخانيين الى المناطق الواقعة على أواسط مجرى سرداريا والى غرب وادي «تالاس» وفرغانة. فدحروا القبائل السلجوقية من أواسط المجرى، والاوغوز من غرب وادي «تالاس»، أمّا فيما يتعلق بوادي فرغانة، فلم يجدوا اي مقاومة تذكر، واستولوا بسهولة على مدينتي كوبا(كوفا) ونصراباد. وبعد بسط سيادته على تالاس وشاش وإلاك، قام هارون بوغرا ـ خان في ربيع ٩٩٢م، بالتوجه الى بخارى على رأس جيش جرار. ولما علم الأمير الساماني نوح الثاني (٩٧٦ ـ ٩٩٧م) بذلك،

والآن، نورد نبذةً عن **أسماء القاراخانيين وألقابهم**: من المعلوم أن اصطلاحي «القاراخانيين» و«دولة القاراخانيين» استخدما للمرة الاولى من قِبل ف.ف. غريغوريف الآنف الذكر (القاراخانيين في ما وراء النهر بناءً على «تاريخ منجم - باشي. بالنص العثماني، مع ترجمة وملاحظات وتعليقات، - أعمال القسم الشرقي لدى جمعية الآثار الروسية»، الجزء «١٧»، مكتبة سمرقند العامة ١٨٧٤م)، كان الملقب بـ«ساتوك بوغرا قاراخان عبد الكريم» أول من اعتنق الاسلام ونشر هذا الدين الحنيف بين أتراك سيميريتشي وكاشغار. وقبل ذلك كانت كلمة «قارا» (الترجمة الحرفية لها «أسود») تعني «العظيم»، «الأعلى»، «الشعب». وبالتالي، فان«قاراخان» كانت تعني «الخان العظيم»، «الخان الأعلى»، «خان الشعب». وآنذاك، درجت العادة أن تطلق ألقاب طوطمية على الملوك والحكام «بوغراخان» («بوغرا» جمل ذو سنامين، فحل و«أرسلان خان» («أرسلان» - أسد)، أما الخانات الاقطاعيون «إلِك - خان». فإن أول من لقب بـ«إلِك - خان» سليمان وموسى، ابنا ساتوك بوغرا خان، السالف ذكره.

الأحداث السياسية الرئيسية

ما من أحد يعرف، بالضبط، تاريخ تأسيس الدولة القاراخانية. ولكن بالإمكان تحديد ذلك على نحو تقريبي. من المعلوم أن مؤسس الأسرة الحاكمة هو ساتوك بوغرا - خان، عبد الكريم الآنف الذكر، ولقد جاء في «طبقات نصري» لمنهاج الدين الجوزجاني ان (ساتوك بوغرا...) ولد في العام ٣٣٤هـ، ٩٤٤ - ٩٤٥م وتوفي في العام ٤٢٩هـ، ١٠٣٧ - ١٠٣٨م. في حين ذكر جمال قارشي تاريخاً آخر لميلاد ساتوك بوغرا ووفاته، اذ قال انه توفي عام ٣٤٤هـ، ٩٥٥ - ٩٥٦م.. وجاء في «سيرة حياة ساتوك بوغرا - خان» («تذكرائي بوغرا - خاني) ان ساتوك بوغرا - خان أسلم على يد أحد الدعاة الاتقياء المسلمين - أبي نصر الساماني، الذي قدم الى ما وراء النهر من كاشغار، بقافلة تجارية أيام الأمير الساماني، عبد الملك بن نوح (٩٥٤ - ٩٦٤م). وإذا كان الأمر هكذا، فان انتشار الاسلام في كاشغار والجزء الجنوبي الغربي لـ«تيان - شان» الوسطى قد حدث تقريباً في أواسط القرن «١٠م». ويمكننا القول إن دولة القاراخانيين تأسست في النصف الاول من القرن «١٠م»،

السلطة التي فقدوها. فمثلاً، استعانوا بكبار الفقهاء المسلمين لاستثارة الشعب من أجل النضال إلى جانبهم، إلا أن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح. ورداً على نداء الفقهاء، رُسُل الامير، أجاب الشعب: «إذا كان خصام الخانيين (القاراخانيين ـ ب. آ) مع السامانيين من أجل الدين، يصبح لزاماً علينا أن نحاربهم، ولكن إذا كان النضال من أجل مصلحة هذا الأمير، فلا يحق للمسلمين التضحية بأنفسهم وتعريضها للهلاك. إن أسلوب حياة هؤلاء الناس (أي الخانيين) رائع جداً، وايمانهم لا غبار عليه ولاعيب فيه و(لذا) من الأفضل الامتناع (عن التدخل)». صحيح أن بعض أفراد الأسرة، مثل القائد أبي ابراهيم اسماعيل الساماني الملقب بالمنتصر (١٠٠٠ ـ ١٠٠٥م) استطاع، بطريقة ما، استمالة الاوغوز (التركمان) الرحل، الذين كانوا، آنذاك، ينقلون من مناطق الضفة اليمنى الى زرافشان ومنطقة نور ـ اتا. وفي العام ١٠٠٠م، استطاع القائد الساماني حاجب ارسلان بال، إلحاق هزيمة بالجيش القاراخاني. وكانت بخارى قد سقطت في يد المنتصر، ولكن لمدة قصيرة. فبعد سنة، أي في عام ١٠٠١م، استطاع القاراخانيون طرده من بخارى، فلجأ المنتصر الى خوارزم حيث لم يتمكن من تثبيت أقدامه هناك. وحال دون ذلك تحالف القاراخانيين مع محمد الغزنوي. وهنا استنجد المنتصر بالسلطان محمود، الا انه لم يتلق المساعدة المرجوة. بل علاوة على ذلك، فقد قام خوارزم شاه في عام ١٠٠٤م بإلحاق الهزيمة به، مما اضطر المنتصرللهروب الى ما وراء النهر، حيث حظي بدعم السلاجقة، ونجح في تعبئة الغزاة السمرقنديين وحشدهم، والانتصار على إلِك ـ خان قرب قرية «بورغازي» (سابقاً ـ كامي أبو مسلم)، ولكن سرعان ما جمع إلِك ـ خان جيشاً كبيراً، وفي السهب الممتد بين جيزاك وخواست دمر السامانيين وحلفاءهم، بعدما تخلّت فصيلة اسماعيل عن المنتصر وانضمت الى قوات إلِك ـ خان. وبأعجوبة تمكن المنتصر من الفرار مع ثمانية من زملائه المقربين، وحاول الاختفاء عند بدوي من العرب الرُّحّل يدعى بن بوهيدجي، إلا أنه قتل هناك. وجرى ذلك نقلاً عن العتبي، في مطلع العام ١٠٠٥م، وبعد ذلك انتهت اسرة السامانيين. وانتقلت السلطة في بلاد ما بين النهرين ـ أي اموداريا وسرداريا ـ الى يد القاراخاني ناصر ابن علي، أمير فرغانة الشرقية.

أرسل ضده جيشاً بقيادة «آياتش» ولكن ليست لدينا معلومات كافية عن المعركة بين الجيشين الساماني والقاراخاني سوى ما ذكره العتبي عن انهزام القوات السامانية، واسْر «آياتش» وعدد آخر من قادته العسكريين. وعقب ذلك توغل القاراخانيون في ما وراء النهر، واقتربوا من «رباط ـ مالك» الواقعة الى الغرب من «كيرمين». ودارت المعركة بين القاراخانيين والسامانيين على مقربة من «رباط ـ مالك»، في منطقة تدعى «خرجينت»، حيث هزم السامانيون نتيجة خيانة قائدهم المدعو «فايق»، الذي تعمّد أن يخسر جيشه المعركة. ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي، حينما اقترب هارون بوغرا ـ خان من بخارى، خرج فايق من المدينة، معلناً عن خضوعه له وانضوائه تحت رايته. أما نوح الثاني، فاضطر الى مغادرة بخارى، وعبور أموداريا، والاختفاء في «أمول». ومع ذلك، لم يستمر هارون بوغرا ـ خان في مواصلة تقدمه، إذ سرعان ما مرض وسلّم بخارى لعبد العزيز، ابن نوح الثاني، وقفل عائداً الى كاشغار. على أنه لم يتمكن من بلوغ عاصمته وتوفي في الطريق بمنطقة كوتشكار ـ باشي. وفي ١٢ اغسطس ٩٩٢م، أي بعد مرور ثلاثة اشهر، عاد نوح الثاني إلى عاصمته. أما فايق فتم العفو عنه وأرسل إلى بلخ. بيد أنه لم يستقر هناك، لأنه لم يلق دعماً من أبي علي سيمجوري، فغادر بلخ خوفاً من نوح الثاني، وذهب إلى القاراخاني إلِك ـ خان نصر، الذي أحسن استقباله ودافع عنه أمام نوح الثاني، الذي عين الخائن حاكماً لسمرقند.

في هذه الفترة، خرجت خراسان عن طاعة السامانيين ووقعت في يدي أبي علي سيمجوري وفائق الآنف ذكرهما، في حين وقعت هرات وغزني في يد سابوك ـ تيغين الذي سبق أن أشرنا إليه آنفاً.

في مطلع العام ٩٩٩م، كثرت الدسائس والمكائد في قصر بخارى، ونتيجة ذلك أطيح بالأمير منصور الثاني (٩٩٧ ـ ٩٩٩م) وفقد بصره. وقد هبّ للدفاع عن الأمير المخلوع كل من محمود الغزنوي (٩٩٨ ـ ١٠٣٠م) والقاراخاني إلِك نصر ـ خان، فسيّر الأول، في شهر مايو ٩٩٩م، جيشاً إلى خراسان، حيث أطاح بالحكام المحليين السامانيين هناك، واستولى على خراسان. ونقلاً عن أبي الفضل البهيقي، فقد خضعت له بخارى دون إبداء أي مقاومة. لكن السامانيين واصلوا النضال لاستعادة

والمشهور بلقب «توغان ـ خان». وعقب وفاة «توغان ـ خان» خلفه ابناه محمد بن علي ومنصور بن علي. وبحسب رأي ف.ف. بارتولد ور. ر. فاسمر، آلت السلطة (ارسلان خان) الى محمد بن علي. وأما بحسب رأي أ. بريتساك فقد آلت الى منصور بن علي، في حين شغل محمد بن علي مكان إلِك ـ خان نصر، ويورد ب. د. كوتشنيف إثباتات قاطعة تؤيد الرأي الأخير.

في تلك الفترة ـ ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي ـ نشأت علاقات متينة بين القاراخانيين والخوارزم شاه أبي العباس منصور الثاني (١٠٠٩ ـ ١٠١٧م)، ووقعت معاهدة صداقة بين الخان الاعلى (الاعظم)، إلِك ـ خان والخوارزم شاه. صحيح أن الخوارزم شاه حاول اقناع القاراخانيين بإرسال فصائل للإغارة من حين لآخر على الغزنويين في خراسان، ولكن الخانات لم يوافقوا، إذ كان في ذلك خطورة بالغة فيما يتعلق بالجار العظيم. واكتفى القاراخانيون بأن وعدوه بالتوسط فيما بينهم وبين السلطان محمد، والخوارزم شاه. وعلى أي حال لقد باءت محاولة إنقاذ خوارزم بالفشل، إذ كانت تحتضر وتعيش أيامها الأخيرة. وكما سنرى لاحقاً، سرعان ما احتلها الغزنويون في العام ١٠١٧م.

بعد وفاة محمد بن علي ومنصور بن علي ـ ابني توغان ـ خان، في العام ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥م، آلت مقاليد الحكم الى يوسف قادر ـ خان، ابن هارون بوغرا ـ خان (المتوفّى عام ١٠٣٢م). وفي عهده تأزّمت العلاقات وتدهورت بحدة بين الخان الاعظم (يوسف قادر ـ خان) والـ«إلِك» علي ـ تيغين، حاكم ما وراء النهر. لقد أورد ميرخوند محتوى رسالة يوسف قادر ـ خان الى السلطان محمود التي يحرض فيها، بصورة مكشوفة، القاراخاني والغزنويّ ضد علي ـ تيغين. وجاء في الرسالة مثلاً، ما يلي: «إذا انتصر إلِك ـ خان، فبالامكان بعد احتلال الدولة التورانية (أملاك القاراخانية الغربية ب. أ) أن يتجه الى إيران في الوقت الحاضر، وإذا وافقنا السلطان وسار بجيشه الى سمرقند، فإننا سنقوم بدورنا بمحاربة إلِك ـ خان (الايلخان)». يلاحظ من مضمون الرسالة تخوّف الخان الاعظم من الايلخان الذي يزداد بأساً وقوة، وطموحاً إلى إخضاع أملاك القاراخانيين الغربية كافة لسلطته. إن انشغاله

بعد فرض سيادتهم على ما وراء النهر، بذل إلِك خان جهوده لبسط سلطته على خراسان ايضاً. وفي عام ١٠٠٦، ورغم اتفاقية الصداقة وحسن الجوار (١٠٠١ - ١٠٠٣م)، قام إلِك - خان، منتهزاً غياب محمود الغزنوي (كان في حملة على الهند)، بإرسال جعفر - تيغين على رأس جيش جرار الى بلخ، وسيّر جيشاً آخر بقيادة ابن عمه «سوباشي - تيغين» الى هرات. وقد تم الاستيلاء على المدينتين - بلخ وهرات.

ولما سمع محمود الغزنوي بذلك، سارع بالعودة الى خراسان. وما كاد السلطان، محمود الغزنوي، يقترب بجيشه، حتى سارع جعفر - تيغين الى ترك بلخ والانطلاق نحو ترمذ ومن هناك الى سمرقند. أما فيما يتعلق بـ«سوباشي - تيغين»، فقد بقي مشرداً هو ومن بقي معه، تطاردهم القوات الغزنوية في خراسان وجرجان. اما «إلِك - خان»، الذي استغلّ انشغال القوات الرئيسية للسلطان محمد في تعقب سوباشي - تيغين، فقد أرسل قواته، مجدداً، الى خراسان وحاول التمركز في بلخ. وبالتحالف مع قريبه يوسف قادر - خان، حاكم خوغا، سار الى هناك بأربعين الف مقاتل، إلا أن محاولته هذه منيت بالفشل مرة أخرى، إذ أباد الغزنويون الفصائل القاراخانية قرب بلخ، عن بكرة أبيهم. ونقلاً عمّا ذكره العتبي فقد جرى ذلك في يوم الاحد الموافق ٢٢ ربيع الثاني ٣٩٨هـ، ٨/يناير/١٠٠٨م. ومع ذلك، ظل ناصر بن علي مصرّاً على احتلال خراسان وطلب العون من الخاقان الكبير أحمد بن علي (المتوفى عام ١٠١٧ - ١٠١٨م)، إلا أن الأخير رفض طلب أخيه، وعلاوة على ذلك، اتفق مع محمد الغزنوي، ما أدى الى استياء إلِك - خان من موقف أخيه، وسير جيشاً ضده. وجرى ذلك في شتاء ١٠١١م، بيد أنّ الجيش اضطر للتوقف في منتصف الطريق من جرّاء الثلوج الغزيرة وشدة البرد. وفي السنة التالية (عام ١٠١٢م)، عاد وأرسل قواته لمحاربة أخيه، بيد أنه لم تجر اشتباكات مكشوفة. ونقلاً عن العتبي: «توسّط السلطان (محمود) وسوّى الأمور» وما لبث أن مرض إلِك - خان ناصر بن علي، بعد ذلك بفترة قصيرة، وتوفي. وبحسب المعلومات التي وردتنا عن «ديول كارشي» كان ذلك عام ١٠١١ - ١٠١٢م.

وبعد وفاته انتقلت السلطة في ما وراء النهر إلى أحمد بن علي الآنف ذكره

بنجاحات واخفاقات متناوبة وانتهت بانتصار علي ـ تيغين. وبالتالي اضطر قسم من السلاجقة، بعد وفاة علي ـ تيغين (عام ١٠٣٤م) على ما يبدو، إلى الانتقال الى ما وراء أموداريا، في خراسان.

بعد وفاة يوسف قادر ـ خان ، خلفه ابنه سليمان (المقتول عام ١٠٥٧م) والملقب بـ «ارسلان ـ خان». وبالاتحاد معه، حاول سلطان مسعود الغزنوي (١٠٣١ ـ ١٠٤١م) القضاء على علي ـ تيغين، الذي كان يناضل بشدة ضده لاستعادة خوتالان والمناطق الأخرى التي فقدها في ما وراء النهر سابقا، لكن محاولاته باءت بالفشل. وعقب ذلك، أجبر سلطان مسعود تابعه التونتاش على محاربة علي ـ تيغين. ولمساعدته أرسل من غزنة جيشاً يتألف من ١٥٠٠٠ مقاتل. ورفض علي ـ تيغين خوض معركة مكشوفة، فترك بخارى وتحصن في قلعة دابوسيا، الواقعة على الطريق المؤدية من بخارى الى سمرقند، شرق قرية «ضياء الدين». بعد الاستيلاء على بخارى، اتجه التونتاش الى دابوسيا، حيث دارت معركة دامية، أصيب فيها التونتاش إصابة مميتة أدت إلى إيقاف الحرب وعقد الهدنة.

توفي علي ـ تيغين ـ بحسب معطيات أبي الفضل البيهقي في العام ١٠٣٤، وخلفه ابنه وولي عهده يوسف بن علي. وتفيد المصادر أنّه واصل سياسة أبيه.

في ربيع عام ١٠٣٥م اجتاحت جيوش القاراخانيين الاراضي الغزنوية الواقعة على الحدود، وقامت بسلب تشاغانيان ونهبها، وحاصرت قلعة ترمذ، بدون التمكن من الاستيلاء عليها، كما أخفقت مرة أخرى في يونيو ١٠٣٥م. وفي شهر ديسمبر من العام نفسه، وقّعت معاهدة سلام بين سلطان مسعود ويوسف بن علي.

في عهد سليمان بن يوسف، خليفة يوسف قادر ـ خان، لم تعد لرئيس السلطة الاعلى لدى القاراخانيين أي هيبة أو سمعة. ومن أجل المحافظة، على الأقل، على لقب الخان الأعلى (ارسلان ـ خان)، قسم سليمان بن يوسف الامبراطورية إلى دويلات أو مقاطعات صغيرة بين إخوانه وأقربائه، ولم يُبقِ لنفسه سوى بالاساغون وكاشغار. فمثلاً، أعطى منطقتي تاراز واسفيجاب لأخيه محمد بوغرا ـ خان، والمدن التركية لارسلان ـ تيغين، وفرغانة لعمه توغان ـ خان، وبخارى وسمرقند وغيرهما

الدائم في حملاته على الهند أثار إلى حدّ ما ، تخوفاته من تعاظم جاره في الشمال ومن السلطان محمود. باختصار، فقد كان يوسف قادر ـ خان والسلطان محمود يطمحان ايضاً إلى الفتّ من عضد علي ـ تيغين.

بدأت الاعمال الحربية الموجهة ضد علي ـ تيغين، في العام ١٠٢٥م، ومن الجانبين: اجتاز السلطان محمود نهر امودار يا على رأس جيش كبير، وعلى الضفة اليمنى للنهر، انضم اليه الخوارزم شاه التونتاش (١٠١٧ ـ ١٠٣٢م)، وخيم في مكان ما على مقربة من سمرقند. والى هناك ايضاً، وصل يوسف قادر ـ خان بجيشه وأقام مخيماً على بعد فرسخ من مكان تمركز الغزنوي. ولدى التقاء الحاكمين، قررا سلب ما وراء النهر من علي ـ تيغين، وتتويج ياغان ـ تيغين، ابن يوسف قادر ـ خان، على عرشها. كما أنهما قررا التصاهر لتوطيد عرى الصداقة بينهما، وتزويج ياغان ـ تيغين من زينب، ابنة سلطان محمود، وسلطان محمد، الابن الثاني لسلطان محمود (الابن الاول ـ سلطان مسعود)، من ابنة يوسف قادر ـ خان. الا أن معارك ضارية أو مهمة لم تجر ضد الايلخان علي ـ تيغين. لكن سلطان محمود انتصر على السلجوقي اسرائيل، حليف علي ـ تيغين، ففر الاخير الى السهوب. وبموجب ما كان متفقاً عليه، منحت سمرقند وبخارى لياغان ـ تيغين، ابن يوسف قادر ـ خان، الذي استطاع بفضل التحالف مع سلطان محمد، أن يطرد توغان ـ خان، شقيق علي ـ تيغين، من «بالاساغون» وأن يستولي على الاراضي الواقعة شرق اوزغيند والممتدة حتى اخسيكيت، وأصبحت ترمذ وتشاغان ـ كان وكوباديان وخوتّالان تحت سلطة الغزنويين. لكن تحالف القرابة بين القاراخانيين والغزنويين لم يكتب له أن يتحقق. وبعد خروج المتحالفين من بلاد ما وراء النهر ـ أي سلطان محمود ويوسف قادر ـ خان ـ استعاد علي ـ تيغين وضعه السابق واستولى على قسم كبير ممّا وراء النهر.

وبادر علي ـ تيغين فوراً الى العمل على استتباب الامور في ما وراء النهر. وفي الفترة من ١٠٢٩ ـ ١٠٣٤م كافح السلاجقة: داود تشاغري بيك ومحمد طغرل بيك. إن الحرب مع هذه القبائل القاطنة في بعض مناطق سمرقند وبخارى، قد سارت

مسعود، وشارك بفصائله في موقعة «داندانكان» الشهيرة (٢٥ مايو ١٠٤٠م) والتي انتهت، كما هو معلوم، بالتدمير الكامل للقوات الغزنوية.

وفي السنة نفسها، استطاع بوري ـ تيغين، بمساعدة هؤلاء السلاجقة التركمان، انتزاع جزء مما وراء النهر من ابناء علي ـ تيغين. ووفقاً لبعض المصكوكات، كان قد استولى في العام ١٠٤٢م على بخارى وسمرقند. ومع ذلك، كانت فرغانة في خمسينات وستينات القرن ـ ١١م، خاضعة لحكم خلفاء علي ـ تيغين، ومنهم ابراهيم بن نصر وداود اللذان كانا يصكان النقود في اخسيكيت ومرغلان واوزغيند (كوتش ـ تيغين داود). وجدير بالذكر أن ابراهيم هذا غدا ذا سلطة قوية، فسرعان ما استغل النزاعات بين جيرانه في الشرق، وقام بدحرهم من شاش وتونكيت.

في سبعينات القرن «١م» نشب صراع سياسي حاد بين القاراخانيين والسلاجقة على المناطق الواقعة على ضفاف النهر في بلاد ما وراء النهر وعلى خراسان: بلخ وترمذ و تشاغانيان وخوتالان. وفي العام ١٠٧٢م، نقض ألب ارسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م) المعاهدة الموقعة بينه وبين شمس الملوك أبي الحسن نصر، وسيّر جيشاً عظيماً إلى ما وراء النهر، وذلك لمعاقبة القاراخاني الذي رفض إطاعته والخضوع له. إلا أن الجيش توقف في منتصف الطريق نتيجة مقتل السلطان الب ارسلان. وهنا، قام شمس الملوك بشن حملة مضادة، وكانت آنذاك ترمذ وبلخ في أيدي القوات القاراخانية، إلا أن قواته لم تستطع تثبيت أقدامها هناك. وفي نهاية الأمر، ترك شمس الملوك هاتين المدينتين وعاد إلى بلاده. يبدو أن القاراخانيين لم يستقبلوا هناك بالحفاوة والترحاب. وعلاوة على ذلك، قام أهل بلخ بمهاجمة وحدات الجيش القاراخاني وتموينه. وبعد مضي سنتين، أي في العام ١٠٧٤م، جهز السلجوقي ملك ـ شاه الاول (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) جيشاً ضخماً وسار به الى سمرقند، إلا أن الأمور لم تصل إلى الاصطدام والاشتباك، ووقعت اتفاقية سلام بعد أن توسط بين الطرفين الوزير المشهور نظام الملوك (المتوفى حوالي العام ١٠٧٨ ـ ١٠٧٩م).

بعد وفاة شمس الملوك، خلفه على عرش دولة القاراخانيين الغربية، أخوه خضر

من مناطق ما وراء النهر ليوسف بن علي.

وهكذا انقسمت دولة القاراخانيين في أربعينات القرن ـ ١١م الى خاقانيتين مستقلتين. إحداهما شرقية، اتخذت بالاساغون عاصمة لها في بادئ الأمر، ثم نقلت عاصمتها الى كاشغار، والثانية غربية، اتخذت عاصمتها اوزغيند اولاً، ثم سمرقند فيما بعد. وكانت كل واحدة منهما تحمل لقب ارسلان ـ خان او بوغرا ـ خان.

كان خان ابراهيم بن نصر، والأكثر شهرة بلقب بوري ـ تيغين في خاقانية القاراخانيين تامغاتش، من ألمع الشخصيات. اسمه الكامل أبو اسحق ابراهيم، أبوه غازي، أو محتل، ما وراء النهر المشهور ـ إلك ـ خان (ايلخان) نصر (مشابه او مطابق لـ «تامغاتش ـ خان الذي حكم سمرقند). أمضى بوري ـ تيغين مدة طويلة اسيراً لدى أبناء علي ـ تيغين، وبعد فراره من الأسر، جاء الى اوزغيند، حيث التحق بأخيه محمد ابن نصر (زعيم الدولة القاراخانية الغربية من عام ١٠٤١ ـ ١٠٤٢م). في المرحلة الاولى لارتقائه سلم الحكم، أبدى نشاطاً سياسياً ملحوظاً: اقام علاقات ودية مع الحاكم (أو الأمير) سلطان مسعود، وحظي بمودته وثقته، وبمساعدة الـ «كوميجيين» (شعب قطن آنذاك شمال تشاغانين والمناطق المجاورة لها) شن غارات سلب ونهب على فاحش وخوتالان التابعتين حينذاك لسلطة الغزنويين، ثم استغل انشغال سلطان مسعود في نزاعه مع السلاجقة واستولى على خوتالان. وفي خريف ١٠٣٩م، انتصر في عدة معارك مع ورثة علي ـ تيغين. وفي اكتوبر ١٠٣٨م، أرسل سلطان مسعود جيشاً من ١٠٠٠٠ مقاتل ضد بوري ـ تيغين، وأجبره على ترك خوتالان والفرار الى الكوميجيين. في ١٨ ديسمبر ١٠٣٨م، سار سلطان مسعود شخصياً على رأس جيشه لمحاربة بوري ـ تيغين، وفي ٣١ ديسمبر ١٠٣٨م، نصب الخيام في مدينة تشاغانيان (حالياً ديناو). وبعد استراحة قصيرة، اتجه سلطان، في بداية يناير ١٠٣٩م، نحو الشمال، ولكن لدى سماعه بنشاطات السلاجقة في خراسان، عاد بسرعة الى بلخ. أما بوري ـ تيغين، فقد تبعه حتى امودايا وفاز بغنيمة كبيرة: عبارة عن قوافل من الجمال والخيول المحملة بالبضائع والسلع. وبالتالي تحالف بوري ـ تيغين مع السلاجقة التركمان ضد سلطان

ما حمل سلطان سينجار على تجهيز حملة جديدة إلى ما وراء النهر، واحتلال بخارى وسمرقند مرة أخرى. وهرب يعقوب ـ تيغين عائداً الى ذويه في آت ـ باشي. أما السلطان، فعين نائبه في ما وراء النهر، واتجه مجدداً نحو اوزغيند. ومن هناك بعث رسولاً الى كاشغار يطلب من خان القاراخاني الاعلى أن يسلمه يعقوب ـ تيغين. فاضطر الخان إلى تلبية طلب السلطان وألقى القبض على يعقوب ـ تيغين وأرسله الى ملك شاه في اوزغيند. وفي تلك الفترة بالضبط، علم باجتياح كاشغار من قبل جيش بارس خان طغرل بن ينال ـ تيغين، ووقوع خان كاشغار في الأسر. فخاف السلطان من مواجهة طغرل، وحرر يعقوب ـ تيغين وأرسله ضد الحاكم كاشغار. فليقتل القاراخانيون بعضهم بعضاً ! وهذا هو المطلوب. بعد ذلك، عاد السلطان ملك ـ شاه الى وطنه خراسان، وفي العام ١٠٩٢م، السنة الاخيرة من حكمه، أعاد عرش ما وراء النهر إلى أحمدي بن خضر ـ خان. إن مثل هذا التحول في سياسة سلاجقة منجم ـ باشي يفسر بأن «سكان هذه المنطقة والأمراء المحليين لم يخضعوا لهذا السلطان واستمروا في عصيانهم وتمرّدهم عليه». على أنه استمر على سياسته القديمة، والشيء الأهم انه كان على خلاف مع علماء الدين المسلمين الذين استعانوا ببعض القادة العسكريين المخلصين لهم. في مطلع العام ١٠٩٥م القوا القبض على احمد ـ خان، واتهموه بانه مارق مرتد وقتلوه.

وتولّى عرش دولة القاراخانيين الغربيين، شقيق الخان المقتول، مسعود ـ خان بن محمد، المشهور ايضاً باسم ركن الدين كليتش توغاتش ـ خان مسعود (المتوفى حوالي العام ١٠٩٧ ـ ١٠٩٨م). لم تردنا أي معلومات في المراجع عن حكم هذا الخان وعن وضع ما وراء النهر أيام حكمه.

أما فيما يتعلق بما حدث في الخاقانية الغربية بعد مسعود ـ خان بن محمد خلال الثلاث سنوات ـ أي من عام ١٠٩٨ ـ ١١٠٢م ـ فحتّى الآن لم تتوافر لدينا اي معلومات عن ذلك. أما منذ العام ١١٠٢، فقد اصبح الحاكم الاعلى للخاقانية ارسلان ـ خان محمد بن سليمان (المتوفى عام ١١٣٢م)، الذي نشأ وتربى في بلاط السلاجقة. وفي عهده، و نقلاً عن إبن الأثير، قام ساغون ـ ديك (من سلالة

ـ خان بن ابراهيم. وعن حكم هذا القاراخاني لا توجد لدينا أي معلومات معينة، إذ لم ترد أي تفاصيل عن ذلك لدى البيهقي وابن الاثير وغيرهما. ولكن يستدل بما ذكره نظامي أروزي السمرقندي، أنه في عهده كانت تركستان وما وراء النهر تنعمان بالأمن والسلام، وقد أقيمت بين الدولتين «علاقات نسب وصداقة، ومعاهدة متينة وتحالف».

حل محل خضر، خان بن ابراهيم، ابنه احمد خان (قتل عام ١٠٩٥م). ونقلاً عن ابن الاثير: لقد كان شاباً سيء الطبع والخلق، ظالماً يبتز الأموال والأملاك، علاوة على ذلك، كان يعادي كبار الفقهاء والعلماء المسلمين، بصورة مكشوفة، وبلغ تماديه حداً لدرجة أنه ـ بناءً على ما ذكره السمعاني ـ غدر بالشيخ أبي نصر أحمد الكاساني واستولى على خزينته، وبعد ذلك صار البعض يكتفي بتجنبه والبعض الآخر يتجاهله علناً. وكان ثمة أناس غادروا البلاد متذرعين بأعذار شتى. نذكر منهم على سبيل المثال، الفقيه، أبا طاهر بن علق، الذي غادر سمرقند متظاهراً بأنه مسافر لأداء فريضة الحج و ذهب إلى مرو، حيث حرّض مالك ـ شاه الأول على احتلال ما وراء النهر. كان السلطان بحاجة الى ذريعة، وفي العام ١٠٨٩م سيّر جيشاً كبيراً الى ما وراء النهر واحتل بخارى وسمرقند، ثم أسر أحمد ـ خان ابن خضر ـ خان، وبناءً على أمر مالك ـ شاه الاول، أُرسل الى اصفهان. وعين الأمير أبا طاهر نائباً له في ما وراء النهر، وقاد السلطان جيشه مواصلاً زحفه شرقاً حتى وصل مدينة اوزغيند. وبناءً على المعلومات التي أوردها ابن الاثير، وافق خان كاشغار (الحاكم الاعلى لدولة القاراخانيين الشرقيين) على شروط السلام التي تقدم بها السلطان، والاعتراف بتبعية دولة القاراخانيين ـ السلاجقة. لكن هذه التبعية كانت شكلية، فما إن عاد السلطان الى خراسان حتى ثار السمرقنديون، وطردوا نائبه أبا طاهر. وبعد ذلك قام زعيم الثوار ـ عين الدولة ـ بإرسال ساعٍ الى حاكم آت ـ باشي (حالياً ـ كوشويكورغان)، يعقوب ـ تيغين، شقيق الحاكم الاعلى لدولة القاراخانيين الشرقيين، داعياً إياه إلى الحضور فوراً الى سمرقند لاعتلاء العرش. وبعد عودة يعقوب ـ تيغين، الى سمرقند، جرى سوء تفاهم وخلاف أدّيا إلى مقتل عين الدولة.

سيميريتشي، فسارعوا الى خلع القاراخاني الضعيف عديم الارادة واستولوا على «بالاساغون».

وهكذا أقام الكاراكيتائيون دولتهم الممتدة، في بادئ الأمر، من الـ«ينيسي» الى «تالاس». ولقب زعيمهم يليو ـ داشي بـ «غوركان» (الخان العام). وبعد ذلك، قام الكيدانيون (الكاراكيتائيون) بإخضاع الـ«كانغيل» في تركستان الشرقية. وفي عام ١١٣٧م، انتصروا على محمود ـ خان الحاكم القاراخاني في ما وراء النهر، إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق المزيد من النجاحات، حتى إنهم لم يطاردوا المتقهقرين وعادوا الى قومهم فرحين بالغنائم الكثيرة التي حصلوا عليها. إن الهزيمة في موقعة جوجينت ـ بحسب تعبير ابن الاثير ـ أثارت «الرعب والكآبة» والسخط لدى جماهير الشعب القاراخاني. وسرعان ما جدد الكيدانيون نشاطاتهم العسكرية ووصلوا الى سمرقند. ومن ناحية أخرى، في ما وراء النهر، هب السلجوقي سلطان سانجار (١١١٨ ـ ١١٥٧م) لمساعدة القاراخاني. وفي ٩ سبتمبر ١١٤١م، وفي سهل كاتاوان الممتد شمالاً حتى سمرقند، وبين تاش ـ كوبروك (الجسر الحجري) ويانغي ـ كورغان، جرت معركة دامية انتصر فيها الكاراكيتائيون على الحليفين: القاراخاني محمود والسلجوقي سلطان سانجار. وبعد ذلك، استولى الكيدانيون على سمرقند بسهولة، وبعد سمرقند خضعت للكاراكيتائيين بخارى أيضاً. وذكر مؤلف «تاريخ جهانكوشا» أنه بعد ذلك اجتاح الكيدانيون خوارزم، ولكن الخوارزم شاه اتسيز (١١٢٧ ـ ١١٥٦م) افتدى نفسه بإتاوة طائلة وتعهد بدفع ٣٠٠٠٠ دينار ذهبي الى خزينة الـ «غور ـ خان». وفي النصف الثاني من القرن «١٢م» بسط الكاراكيتائيون سلطتهم على ترمذ وبلخ، وبهذا توقف زحفهم غرباً.

بعد الاستيلاء على ترمذ وبلخ ضُمت بلاد ما وراء النهر الى ممتلكات الكاراكيتائيين الاساسية المؤلفة من (تشوي، تالاس، كاتشكو، سوسامير، وادي تشاتكال ومنخفض إيسيكول).

وعلى المدن والمناطق المحتلة عيّن غورخان نواباً له معظمهم من الحكام السابقين

القاراخانيين) بعدة محاولات (في الفترة ١١٠٣ ـ ١١٠٩م) لانتزاع السلطة من ارسلان ـ خان محمد بن سليمان. إلا أن الأخير تغلّب على خصمه بفضل الدعم القوي له من جانب السلاجقة.

وفي آخر سني حكمه، أصيب ارسلان ـ خان محمد بن سليمان بالشلل، فانتقلت السلطة الفعلية لابنه ناصر بن احمد، الذي سرعان ما اصبح ضحية للمؤامرات والدسائس وقُتل. وبعد وفاة أرسلان ـ خان محمد بن سليمان انتقلت السلطة في خاقانية القاراخانيين الغربية الى ابي المظفر تومغاتش ـ خان ابراهيم، شقيق محمد بن سليمان، ومن ثم الى كليتش تومغاتش ـ خان (ابو المعالي الحسن ابن علي، والمشهور ايضاً بلقب (حسن ـ تيغين).)، ومن بعده الى ابنه أبي المظفر تومغاتش بوغرا ـ خان محمود. ـ ذلك ما أورده ابن الاثير ـ. توفي حسن ـ تيغين في العام١١٣٢م. وكما هو معلوم، فقد قام الكيدانيون، في عهد خليفة حسن ـ تيغين محمود بن محمد، باجتياح ما وراء النهر.

والكيدانيون يُعرفون ايضاً بـ «كاراكيتاي». وهم شعب مزيج من التونغوس والمغول، وكانت لهم دولتهم «لاوو» (١١٣٤ ـ ١٢١١م) المترامية الاطراف والممتدة من المحيط العظيم وحتى بحيرة بيكال و تيان ـ شان. زاول الـ«كاراكيتائيون»، علاوة على رعاية الماشية، الزراعة والتجارة. وفي ثلاثينات القرن«١١م» بدأوا بالتحرك غرباً عبر الاراضي القيرغيزية وتركستان الشرقية، حتى وصلوا آنذاك في الاتجاه الشمالي الغربي الى نهر «اميل» حيث بنوا مدينة وسكنوا المنطقة المعروفة حالياً بـ«تشوغوتشاك». وكان عددهم ـ نقلاً عما ذكره الاكاديمي ف. ف. بارتولد ـ زهاء ٤٠٠٠٠ كيبيتوك. وكان الحاكم القاراخاني بالاساغون قد استدعاهم نتيجة مضايقات قبيلتي «كانغلي» و«كارلوك»، اللتين كانتا تشكلان قوة عسكرية وسياسية كبيرة في سيميريتشي. أما بالنسبة للمجموعات الأخرى منهم، المتجهة الى تركستان الشرقية، فقد هزمت في مكان ما في كاشغار على يد أرسلان ـ خان أحمد ابن تومغاتش خان حسن. ونقلاً عما ذكره ابن الاثير، فقد جرت تلك الاحداث عام ١١٢٨م. وأسر زعيمهم الملقب بـ «الأحدب». أمّا أولئك الذين وصلوا الى

وبحسب معطيات النميات (علم المصكوكات) خلفه على العرش بعد وفاته، إبنه محمد بن مسعود (المتوفى حوالي العام ١١٧٣ ـ ١١٧٤م) وأيام حكمه عاود الكيدانيون حملتهم مجدداً على خوارزم عبر ما وراء النهر، في عام ١١٧١ ـ ١١٧٢م، وذلك لعدم دفع الخوارزم شاه الإتاوة في الوقت المحدد. وجدير بالذكر، وجود فصائل قاراخانية ضمن غور ـ خان. وقام الخوارزم شاه إيل ـ ارسلان (١١٥٦ ـ ١١٧٢م) بإرسال جيش بقيادة عيّار ـ بيك لملاقاة الكاراكيتائيين، إلا أن عيار ـ بيك هزم في المعركة. وبعد ذلك، قاد ايل ـ ارسلان جيوشه بنفسه، إلا أنه مرض في الطريق واضطر إلى العودة الى غورغيانج، وسرعان ما توفي هناك. بيد أن الكاراكيتائيين لم يستغلوا الفرصة هذه وعادوا الى فرغانة.

وفي العام ١١٧٨ ـ ١١٧٩م، استولى خان اوزغيند ـ ابراهيم بن حسين ـ على سمرقند وفرض سلطته على قسمي خاقانية القاراخانيين الغربيين. وفي عهده، خاض عدة معارك مع الكاراكيتائيين والغوريين والخوارزم شاه. وشارك فيها، كما في السابق، الكاراكيتائيون الغربيون. فمثلاً ساعدوا تيكيش في اعتلاء عرش خوارزم عام ١١٧٢م.

وفي العام ١١٩٧ ـ ١١٩٨م، شن الكيدانيون حملة عسكرية على خراسان، نتيجة التصرفات العدوانية للحاكم غوامي، الذي احتل منطقة بلخ التابعة للكاراكيتائيين، وأولى تبعيتها للغوري غياث الدين محمود (١٢٠٦ ـ ١٢١٢م)، الذي يبدو انه في مطلع القرن «١٣»، أرسل جيشاً الى خراسان لمحاربة الخوارزم شاه تيكيش. فخاف الأخير ان يخوض المعركة وحده واستنجد بالغور ـ خان. فأرسل لمساعدة الخوارزم شاه جيشاً جراراً بقيادة تابانكو، حاكم تاراز. لكن الحلفاء هزموا وتشتتوا على ضفة امودار يا، وذلك في أثناء عبور النهر.

وفي مطلع ق ـ ١٣م، وبعد ابراهيم بن حسين، اعتلى عرش سمرقند ابنه عثمان. وكان عهد هذا القاراخاني الأخير في سمرقند قد شهد الاحداث التالية:

في العام ١٢٠٤م، قام السلطان شهاب الدين محمد (١٢٠٣ ـ ١٢٠٦م) بمحاصرة غورغيانج. وفي خضم معارك الحصار على مشارف عاصمة خوارزم

او اقربائهم. كما عين لهم مسؤولاً من الكاراكيتاي، وكلّفه بجمع الإتاوات، وايضاً باستشارة الحاكم المحلي في الأمور كافة. من المعلوم أنّ بخارى كانت آنذاك تحت حكم آل (اسرة) برهان، الذين كانوا يشغلون منصب «الرئاسة» بالوراثة. وكان الشعراء يقارنون هؤلاء «الرؤساء» بالأمراء السامانيين، ويضعونهم في منزلة الملوك. قام غورخان يليو ـ داتشي بتعيين الامام أحمد بن عبد العزيز حاكماً لبخارى، وهو شقيق الصدر الثاني حسان الدين عمر الذي قتل عام ١١٤١م لدى استيلاء الكاراكيتائيين على بخارى. وجاء على لسان نظامي عروضي السمرقندي، يبدو ان النائب (الذي عين للامام أحمد بن عبد العزيز) الكاراكيتائي كان قد تلقى تعليمات بضرورة استشارة الامام في الامور كافة. أما في سمرقند، فكان قد عين ابراهيم بن محمد، شقيق الحاكم السابق محمود، الذي هرب ضمن حاشية سلطان سانجار بعد موقعة كاتوان المشهورة. إلا انه كان شخصاً ضعيف الإرادة وقتله زعماء الكارلوك في العام ١١٥٦ ـ ١١٥٧.

وبناءً على الحقائق الساطعة التي اوردها إ. أ. دافيدوفيتش، في النصف الثاني من القرن «١٢م»، كانت المملكتان القاراخانيتان: فرغانة مع اوزغيند وما وراء النهر مع سمرقند تحت سلطة أسرتين قاراخانيتين تربطهما صلة قرابة. حاول حسن ـ تيغين ابن علي، ممثل القاراخانيين الفرغانيين، الاستيلاء على سمرقند، لكن محاولته باءت بالفشل. إلا أن إبنه وخليفته، تشاغير ـ خان جلال الدين علي، نجح في تحقيق ما عجز والده عن تحقيقه. وهكذا، واعتباراً من عام ١١٥٦م وحتى السقوط التام لدولة القاراخانيين، بقيت السلطة على المملكتين في أيدي القاراخانيين الفرغانيين.

وبعد وفاة تشاغري ـ خان جلال الدين (حوالي العام ١١٦٠ ـ ١١٦١م) خلفه على العرش أخوه (ابنه حسب مصادر اخرى) كليتش تومغاتش ـ خان مسعود بن حسن ، الذي خاض معركة ناجحة ضد الكارلوك، وأخمد انتفاضة القائد العسكري عيار ـ بيغي. توفي كليتش تومغاتش ـ خان مسعود بن حسن بتاريخ ليس قبل العام ١١٦٩ ـ ١١٧٠م.

استغل الخوارزم شاه علاء الدين محمد ذلك واحتل بخارى. أما عثمان فصار منذ ذاك الحين من اتباع الخوارزم شاه، الا انه تمرد عليه في العام ١٢١٢م. وسار الخوارزم شاه شخصياً الى سمرقند واحتلها وعمل فيها سلباً ونهباً لمدة ثلاثة ايام. أما عثمان، فقد أسر واعدم. وهكذا استولى الخوارزم شاه على ما وراء النهر بأكملها ووصل حتى اوزغيند.

وهكذا اضمحل القاراخانيون ثم الكاراكيتائيون من بعدهم بفترة قصيرة.

العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية ونظام الحكم القاراخاني

كان سكان دولة القاراخانيين يمتهنون حرفاً مختلفة. فسكان القسم الشرقي من الخانية: في تيان شان الوسطى وجزء من سيميريتشي كانوا يهتمون برعاية الماشية، وفي مدن سيميريتشي وفرغانة وما وراء النهر كانوا يزاولون التجارة، وفي وديان الانهار والسهول والمناطق المحيطة بالمدن، كانوا يهتمون بالزراعة. وتشير المخطوطات والمصادر الاثرية، الى أنه جرت في الفترة ما بين ق. ١٠ ـ ١٢م عملية انحلال العلاقات القبلية التقليدية القديمة وتفككها، ومع ذلك، تطورت العلاقات الاقطاعية في منتهى البطء، بتأثير آثار التقاليد القبلية القديمة ومخلفاتها. بينما تطورت العلاقات الاقطاعية بصورة سريعة في المناطق الزراعية ووديان انهار تشو وايلي وتالاس ومنخفض ايسيكول.

وهكذا زاول سكان الدولة القاراخانية:تربية الماشية، والصناعة والتجارة، والصيد نسبياً.

كان الرعاة الرحل يهتمون، بشكل رئيسي، بتربية الاغنام والأبقار والخيول والجمال والياك. ويعتمدون في حياتهم على ما يحصلون منها من لحوم والبان وحليب وصوف وجلد وزبدة... الخ.

وفي المرحلة التي هي موضوع دراستنا (ق ١٠ ـ ١٢م) تزداد وتائر الانتقال من حياة البداوة الى حياة التمدن.

ظهر العديد من قوات الكاراكيتائيين وخان سمرقند القاراخاني عثمان. ولما رأى الغوريون هذه القوات فكوا الحصار وتركوا خوارزم، وسارت قوات غور ـ خان وعثمان ـ خان المتحالفة متعقبة الغوري حتى اندخود. وتوارى شهاب الدين محمد خلف اسوار اندخود الحصينة، وكان ذلك في شهر سبتمبر أو بداية أكتوبر عام ١٢٠٤م. أما عثمان ـ خان، باعتباره مسلماً، فإنه لم يرغب في ان يقع شهاب الدين محمد اسيراً في يد غورخان غير المسلم، وتواسط بين غورخان وشهاب الدين محمد وصالحهما. أما الكاراكيتائيون، وبعد أن أخذوا فدية طائلة من الغوري، عادوا الى ديارهم.

لقد شهد العقدان الاولان من القرن «١٣م» تعاظم نشاط الدولتين الشرقيتين العظميين: دولة خوارزم في الغرب ودولة جنكيزخان المغولية في الشرق. ووجد الكاراكيتائيون أنفسهم بين فكي كماشة هاتين الدولتين، إضافة الى فك كوتشلوك (كوشلوك) الأمير النعماني العظيم.

وبدأ كل شيء في عام ١٢٠٥م، نتيجة رفض الخوارزم شاه علاء الدين محمد (١٢٠٠ ـ ١٢٢٠م) لدفع الإتاوة لغورخان، ومنازعته، إضافة الى ذلك، على ما وراء النهر، التي كانت آنذاك تحت سلطة الكاراكيتائيين، واتصاله بالحاكم القاراخاني عثمان واقامته علاقات سرية معه ومع غيره من الحكام.

أما غورخان فقد قام، جراء تعاظم نشاطات النيمانيين وزعيمهم كوتشلوك، بطلب العون من اتباعه ومن ضمنهم الخان عثمان، خان سمرقند. لكنه لم يتلق المساعدة المتوقعة، بل انضم خان سمرقند الى الخوارزم شاه. وأرسل غورخان ضده ٣٠٠٠٠ من جنوده، إلا أنهم أعيدوا بسبب نشاطات كوتشلوك.

وفي عام ١٢٠٧م، سار الخوارزم شاه مع الخان عثمان بجيش ضد غورخان. والتقى الجيشان: جيش غورخان والخوارزم شاه في تاراز، ولكن بعد مناوشات واشتباكات قصيرة في ظروف صعبة جداً. أخذت عمليات التمرد تظهر في جيشه، وانضم قسم كبير منه الى جيش كوتشلوك. ولم يبق أمام غورخان سوى الاستسلام لكوتشلوك.

كوجيمياكو، غ. ن. باتسيفيتش، ا. ا. اغييفا، ت. قادروفا، عبد الرزاقوف، ل. إ. الباوم، ا. احراروف وغيرهم)، وذكروا أن هذه المدن كانت متطوّرة في ميداني الصناعة والتجارة. وكانت المدن والمستوطنات كثيرة في هذه المنطقة. فمثلاً بلغ عددها من تاراز حتى اترار ١٣٠ مدينة، في حين بلغ عددها على الضفة اليسرى لسرداريا ١٢ مدينة (اوزغيند واركوك الخ..). وكانت المدن الضخمة في سيميريتشي ايضاً (بالاساغون، آك ـ بيشيم، الماليق، كولان ونوزكيت الخ..). وجاء انه بلغ عدد مدن واحة طشقند زهاء ٥٠ مدينة (اسفيجاب وبينكيت وتونكيت وناوكيت وبيناكيت الخ..) وكان عددها في فرغانة ٣٩ مدينة (اوزغيند واخسيكيت ومرغيلان وكوفا الخ...)، وفي اوستروشان ـ ١٢ مدينة (بوند جكيت وشهريستان الخ...) وفي واحة بخارى ـ ٢٩ مدينة.

لقد أدى موقع العديد من هذه المدن على طريق الحرير العظيم الى ازدهار الصناعات والتجارة فيها. فازدهرت في هذه المدن والقرى ايضاً الصناعات كافة: كالخزف والنسيج والحدادة والصياغة وغيرها. وساعد على ذلك توافر الخامات في البلاد، فمثلاً كانت جبال تالاس غنية بخامات الحديد والنحاس والذهب والقصدير والفيروز والنفط. والجبال القريبة من شيلجي، الواقعة في وديان تالاس، كانت مركزاً ضخماً لانتاج الفضة والرصاص، وكارامزار، شمال آخانغران، كانت منجماً لاستخراج الفضة. وكانت جبال فرغانة مناجم لاستخراج الذهب والفضة والنشادر والزئبق والحديد و النحاس والفيروز والنفط والقطران والاسفلت وغيرها. كذلك كانوا يستخرجون الفيروز والحديد والقصدير من جبال «طشقند». والذهب والنحاس والرصاص والزئبق والرخام من جبال «نورات». وبفضل توافر هذه المعادن وغيرها، تطورت صناعة التعدين في هذه المنطقة الخاضعة لسيادة القاراخانيين. واكتشف علماء الآثار بقايا المعادن المنصهرة في أطلال «بابا ـ آتا» على جبال «كارا ـ تاو». ومناجم في «تالاس»، وورشات تعدين في كارا ـ بولاك (اوستروشان)، وورشات لصهر خامات النحاس في «تشات قلعة»، وورشات لصناعة الزجاج في كوفا وسمرقند واخسيكيت واوزغيند. ومن المعادن المختلفة،

كانت المناطق الزراعية تنتج الحبوب: القمح والشعير والحمص والبازيلا والعدس والدخن؛ والفواكه والخضار: العنب والتفاح والخوخ والمشمش والجوز والسفرجل... الخ، والقرعيات: البطيخ بنوعيه الأصفر والأحمر والخيار والبصل...الخ.

كانت الطبقة السائدة في المجتمع ابان حكم القاراخانيين، تتألف من الاقطاعيين، وجهاء القبائل الرحل وشيوخها، هذا طبعاً إضافة الى الخانات والأمراء وكبار رجال القصر. وكان يطلق على المواطنين كافة، مصطلح «بودون»، وينقسمون بدورهم الى طبقة الأغنياء (بايلار)، والمتوسطة الحال (اورتا)، والفقراء (تشيغايلار)، القسم الرئيسي المنتج. كذلك كانت طبقة أخرى من الناس لا تجيد مهنة معينة، وتعيش بواسطة فرص العمل التي تتاح لها صدفة او في المناسبات (العيارين). كانت غالبية السكان العاملين في ميدان الزراعة من العاملين بموجب المحاصصة (العقارين) وتعتمد في عيشها، بصورة رئيسية، على فلاحة أراضي غيرهم (مقابل الحصول على حصة معينة من المحصول). إضافة إلى طبقة العبيد او الرقيق.

يستدل بمعطيات المصادر، انه في دولة القاراخانيين كانت ما تزال توجد الملكية الاقطاعية، التي كانت قائمة في عصر السامانيين، لا تزال قائمة: الاراضي السلطانية، أي تلك التي انتقلت ملكيتها الى الخان القاراخاني، اراضي واملاك السامانيين وخدمهم، اراضي الديوان، أي التي تعود ملكيتها الى الدولة مباشرة، الملكية الخاصة، وأملاك الأوقاف. وطبق القاراخانيون اسلوب توزيع الأرض الى اقطاعات، الأمر الذي سبق أن تحدثنا عنه.

وفيما يتعلق بضريبة الأراضي، لم تشر المعلومات المتوافرة لدينا الى ضرائب أخرى غير «الخراج». ويبدو أن الضرائب نفسها، التي كانت مفروضة أيام السامانيين، بقيت في عهد القاراخانيين ايضاً.

وثمة معلومات كثيرة عن المدن والمستوطنات ذات التصميم المدني، وعن وضع الصناعة والتجارة في آسيا الوسطى وسيميريتشي وتيان شان الوسطى، أُشير اليها في البحوث والدراسات التي أجراها العلماء القاراخ والقيرغيز والاوزبك (ب.ب

كما تصادفنا في المراجع مصطلحات مثل «يابغو» و«توكسين». ويبدو أن المقصود بهما الحكام الـ«اولوس». وهؤلاء أمراء يأتون في المرتبة الثالثة بعد الخان.

تجدر الاشارة هنا الى أنه كان للخانات حرس خاص بهم، شأنهم في ذلك شأن السامانيين.

وكان الوزراء هم الذين يشرفون على السلطة الادارية. ويبدو أنه في عهد القاراخانيين ايضاً، احتفظ بالدواوين العشرة التي كانت قائمة في عهد السامانيين. كما كان كتبة القصر (بيتيكتشي) وأمناء سر الخان يحظون بمكانة معتبرة.

وكانت القوات (كوشون) لدى القاراخانيين تعرف باسم «بيريك»، ومقسمة الى مجموعات عدد افرادها من ١٠٠ الى ١٠٠٠ مقاتل. وكان القائد العام الاعلى يلقب بـ «سوبوشلار» (زعيم) او «سيناخسالار»، وكان يطلق على صغار الضباط المشرفين على العمليات الحربية في أثناء القتال لقب «تشابوش»، أما قائد فرقة الفرسان فكان يطلق عليه لقب «خيل باشي».

كانت الاسلحة تتألف من السيوف «كيليتش»، بلطات الحرب (بالتو)، السهام (اوك)، الدروع (يوروك)، السياط (كامتشي)، تروس الحديد (تيمور كالكان)... الخ.

أما السلطة المحلية في الولايات فقد كانت في ايدي البكوات. والمستوطنات والقرى فكان يديرها الشيوخ (كوكتشين ساكال)، وفي المدن الحكام والرؤساء.

كان علماء الدين المسلمون (الائمة، السادة، الشيوخ، الصدور، شيوخ الاسلام والقضاة) يتمتعون بنفوذ كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية.

وكما هو مألوف، فإن المراجع لا تتحدث كثيراً عن وضع الطبقة الكادحة، ولكن من الواضح أن الجماهير الكادحة كانت تستغلها وتستعبدها الطبقات الحاكمة ذات الامتيازات. إلا أنها ـ أي الجماهير الكادحة ـ كانت، ولو بصورة غير منظمة، تناضل من أجل حقوقها، كما ناضلت أيام القاراخانيين. فمن المعلوم مثلاً، أنها ثارت على مستعبديها مرتين في ثلاثينات القرن «١١م» وفي عام ١٢٠٧م، وجرت الثورتان

كانوا يسبكون القدور (تركستان، كوفا، بارسخان، كاشغار) والاجراس (كاشغار، بارسخان).

لقد مارس سكان القرى، والرحل حرفة الصناعة، الى حد ما. وكانت مصنوعاتهم الرئيسة من الخامات الزراعية والحيوانية.

وكانت منتجاتهم تزيد عن حاجات السوق الداخلية، فيصدر الفائض منها الى الأسواق الخارجية.

أما عن نظام الحكم لدى القاراخانيين، فيمكننا القول، إنه رغم كون زمام الحكم، بصورة شكلية، في قبضة شخص واحد، ألا وهو الخان (مقره الدائم في بالاساغون)، إلا أن السلطة كانت لا مركزية، وموزعة بين الاقرباء ورجال الحاشية المقربين، الذين يتمتعون بقسط كبير من الاستقلال وحرية التصرف في اقطاعاتهم، باختصار، كان زعيم الدولة يعتبر رمزاً. زد على ذلك، أنه في النصف الثاني من ق - ١١م، انقسمت دولة القاراخانيين الى قسمين مستقلين: خاقانية شرقية وخاقانية غربية.

وعلى العموم، كان نظام الحكم على النحو التالي: جرى الاحتفاظ بالكثير من الانظمة التي كانت متبعة لدى اسلافهم السامانيين، يُرى ذلك من خلال المصطلحات التي احتفظ بها في «ديوان لغة الترك» لمحمد كاشغاري و«كوتادغو بيليك» ليوسف بالاساغوني «حاجب»، «خاص حاجب»، «اولوغ حاجب»، «وزير»، «سيباخسالار»، «خيل باشي»... الخ.

كان بلاط الحاكم الاعلى، وبلاط حاكم الاقطاع، يعرف باسم «كابوغ» (كلمة تركية - قشرة، صدفة، خلية)، أما المشرف على البلاط فكان (كابوغ - باشي، أي رئيس الخلية) وكان يشرف على شؤون خزينة الدولة، «أغيتشي» (حارس السلع الحريرية)، رئيس التشريفات، «بيروك»، الطهاة - «آشتشي»، خدم المائدة او الندُل - «اديشين»، مدبرات البياضات، «توشاكتشي»، الصقّارون، «كوشتشي»، حرس القصر، «اوك ياتشي»، رئيس الحرس، «ياشغاك» (المسؤول عن حماية الخان والقصر).

الفصل السابع

خوارزم في الفترة من ق ـ ٩ الى ق ـ ١٢

كانت خوارزم، شأنها شأن عموم آسيا الوسطى، مركزاً من مراكز الحضارة العالمية. وكان اجداد الاوزبك والطاجيك والتركمان الحاليين وشعوب آسيا الوسطى الآخرين وأسلافهم من حملة راية الثقافة المادية والروحية لهذه الشعوب.

ولقد أثبتت الأبحاث والتنقيبات الأثرية، التي أجراها س. ب. تولستوف في الفترة من ١٩٣٧ ـ ١٩٤٩م، ان خوارزم كانت، في الفترة من ق ـ ٤ ق. م ـ الى ق ـ ١ ق. م، دولة عظيمة عالية التطور في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وكانت مدنها محصنة وكثيرة الاستحكامات، ولها أيضاً علاقات تجارية نشطة، ليس فقط مع جاراتها، بل مع سوريا ومصر ودول البحر الاسود. كما كانت مزدهرة ثقافياً، وذلك ما تدل عليه الآثار التي عثر عليها في توبراك ـ قلعة عالم الآثار س. ب. تو لستوف (١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م)، وهي ـ أي الآثار ـ عبارة عن رسوم تعود الى ق ـ ٣م. ويقول هذا العالم: «إن خوارزم القديمة كانت ذات ثقافة فنية لا مثيل لها. إن فن البناء الرائع، الذي يدهش الأبصار بأشكاله المهيبة، واللوحات البديعة للتماثيل الطينية المدهشة، والنقوش، والفن الرفيع للمصممين الخوارزميين القدماء، وأخيراً المنمنمات التخطيطية الكثيرة الزاخرة، تؤلف مجموعة نادرة أصيلة تشهد على استقلالية ومدى قوة ونضوج التفكير والمهارة والبراعة الفنية لبناة الحضارة الخوارزمية القديمة العريقة». (*متعقبو آثار الحضارة الخوارزمية القديمة*. ص ١٨٩ ـ ١٩٠).

في ما وراء النهر، احتجاجاً على الضرائب الباهظة التعسفية. ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي، فقد كانت الثورة الاولى ضد الإلك ـ خان (الايلخان) بوري ـ تيغين الآنف ذكره، أما الثورة الثانية فقد قامت في العام ١٢٠٧م، في عهد الصدر برهان الدين محمد بن احمد، حاكم بخارى ومنطقتها، والذي عينه الكاراكيتائيون لجمع الاتاوات لهم، إلا أنه كان سيد المدينة، يتمتع بكامل الحقوق والسلطة، وأغنى شخص فيها.

ونقلاً عن ابن الاثير، وعوفي، والنشوى، فإنه كان، علاوة على منصبه كرئيس (محتسب)، يشغل أيضاً منصب «خطيب»، ويتكفل بأمواله زهاء ٦٠٠٠ من الفقهاء ينفق عليهم ويدفع لهم معاشات. وفي العام ١٢٠٦م، قام هذا «الصدر» باداء فريضة الحج بصحبة مجموعة كبيرة من افراد حاشيته ومعهم قافلة تضم عدداً كبيراً من الاغنام والخيول والجمال؛ كان عدد الجمال وحدها أكثر من مئة رأس. وبتصرفه (اساء بصورة سافرة الى أحد الحجاج) في مكة، أثار سخطاً عاماً. وسرعان ما بلغ النبأ أهل بخارى، الذين كفوا عن مناداته بلقبه «صدر جهان».

باختصار، ثار الشعب ضد الصدر برهان الدين محمد، وكان كبرياؤه وعدم لباقته في مكة مجرد مبرر لثورة البخاريين عليه. أما السبب الحقيقي، فكان يكمن في أمر آخر ألا وهو جشع صنيعة الكاراكيتائيين وأجيرهم وتعسفه. فاستولى الثائرون على المدينة، وحاصروا قصر «الصدور». وعين سينجار، المعروف بـ «سلطان سينجار» حاكماً بدل الصدر برهان الدين محمد.

الوسطى. أما عن التفكك او التفتت السياسي لخوارزم عشية هذا الحادث التاريخي المهم، فإنه لا توجد لدينا معلومات قاطعة حقيقية. اما فيما يتعلق بوضع آسيا الوسطى وتلك الأراضي على الضفة الأخرى لأموداريا، تبين المعلومات التي وصلتنا وجود مواد تلقي اضواءً ساطعة على ذلك. لقد كانت هذه الاراضي الشاسعة المترامية الأطراف مجزأة الى دويلات صغيرة متخاصمة، قبيل الاجتياح العربي. وكانت هذه الدويلات: تشاغانيان - على رأسها تشاغان - خودات، ترمذ - يحكمها ترمذ - شاه، وامارات واشجيرد، قوباديان وخوتالان، الواقعة بين نهري وحش وبيانج وكيرّان، شوغنان وواحان، الواقعة في منطقة جمهورية غورنو - باداخشان ذات الحكم الذاتي - حالياً - التابعة لجمهورية طاجيكستان، راشت وكوميد في اعالي وحش (كاراتيغين حالياً)، وسكانهما من الكوميج الناطقين باللغة التركية، وبوتيم في اعالي باداخشان. وكانت سغد وحدها تتألف من ثلاث دويلات صغيرة: سغد - عاصمتها سمرقند. وكانت تشتمل حدودها على حوض زرافشان من بيانجيكينت وحتى كيرمين، الجزء الغربي من وادي زرافشان - وعاصمته بخارى - إمارة فاردان - حاكمها فاردان خودات. كذلك كانت فرغانة تتألف من عدة دويلات: خوجينت، اوستروشان وشاش. طبعاً لم تكن خوارزم استثناءً، وذلك ما تؤكده المعلومات المقتطفة التي اوردها الطبري والمقدسي. فمثلاً يورد الطبري، اضافة الى لقب «خوارزمشاه» لقب «ملك» التابع للاول من حيث المنصب، طبعاً بصورة اسمية. اما المقدسي، فيقول إنه فقط في ضواحي ميزداخ قلعة وحدها (ميزداخ قلعة - مدينة قديمة قرب خوجيلي الحالية) كان فيها ١٢٠٠٠ قصر محصن كل واحد مبني على حدة، تعود ملكيته للاقطاعي الحر او المستقل او الارسطقراطي.

اختصاراً، كان التفكك السياسي والعداء والصراع العسكري الدائم بين الدويلات، عوامل حاسمة مهدت السبيل أمام القادة العرب لفتح آسيا الوسطى وخوارزم. فمثلاً، يورد الطبري إثباتات قاطعة بأن الامراء المحليين، كي يتغلبوا على أعدائهم، لجأوا إلى الإستعانة بالقادة العرب، الذين كانوا يتخذون مواقعهم على الضفة اليسرى لأموداريا.

وهنا تجدر الاشارة الى أن سكان خوارزم القديمة كانوا يحسنون القراءة والكتابة وكانت حروفهم مأخوذة من الحروف الآرامية.

الحقائق الاساسية للتاريخ الاجتماعي السياسي

في الماضي البعيد (٦ ق. م)، خضعت خوارزم لسلطة السلالة الاخيمينية الايرانية القديمة، وكانت تعتبر واحدة من الاقاليم الست عشر التابعة لهذه الامبراطورية. ولدى قيام الاسكندر المقدوني بغزو آسيا الوسطى (٣٢٨ ق. م)، كانت السلطة فيها لإحدى الاسر المحلية الحاكمة، وفي مطلع القرن كانت خوارزم قد انضمت الى الامبراطورية الكوشانية. وفي القرن «٣» ق.م كان الحكم لإحدى الأسر المحلية، كما أثبتت عمليات التنقيب الاثرية في توبراك ـ القلعة المشهورة (١٩٣٨، ١٩٤٠، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠)، العائد تاريخها الى القرن «١» ق. م، والواقعة في منطقة ناحية بيروني الحالية في جمهورية قاراقالبقستان.

وفي عام ٣٠٥م، انتقلت السلطة في خوارزم الى أسرة افريغيت، التي كانت تعتبر نفسها فرعاً من السيافوش القدماء. دام حكم الافريغيت ستة قرون (ق ٤م - نهاية ق ١٠م). وكانت عاصمتهم الأولى هي «توبراك القلعة التي أشرنا إليها أعلاه، ثم نقلت عاصمتهم الى «بيل ـ القلعة» (فير ـ فيل)، التي توجد أطلالها في ضواحي «شابّاز» (شاه عباس). هنا، ينبغي القول إنه حينما كانت آسيا الوسطى بأسرها ومناطق الضفة اليسرى لأموداريا، خاضعة لحكم الهون ـ الڤيداريين او ما يسمون بـ «الهون البيض» (ق ـ ٥م)، ثم لحكم الخاقانية الألمانية الغربية (ستينات ق ٦ ـ ٧م). استطاعت خوارزم ان تحافظ على سيادتها وان تتبع سياسة خارجية مستقلة، وذلك ما تشير اليه المعلومات التي أوردها المؤرخ البيزنطي «ميناندر».

إلا أن الحياة الاجتماعية ـ السياسية التي بدأت في خوارزم اعتباراً من ق ـ ٤م تقريباً (تدني الحياة في المدينة وظهور طراز جديد من المستوطنات ـ قصور الاقطاعيين والأرسطقراطيين)، شهدت، كنتيجة طبيعية لذلك، تضعضعاً في العلاقات السياسية الداخلية، ازدادت حدته قبيل اجتياح الجيوش العربية لآسيا

اما عن الوضع الاجتماعي ـ السياسي لخوارزم في ق «٨م» ـ والربع الاول من ق «٩م»، فالمعلومات المتوافرة لدينا قليلة جداً، والذي نعرفه ان البلاد كانت داخلة ضمن الخلافة، بدليل أنه كان الى جانب الشاه، المنتمي الى أسرة افريغيت، والٍ يدير شؤون البلاد ـ مع الشاه ـ عينه نائب الخليفة في خراسان. لكن هذه التبعية كانت اسمية، واستطاعت اسرة افريغيت المحافظة على الاستقلال الفعلي للبلاد حتى عام ٩٩٥م. أما تبعيتها للخلافة، فكانت تكمن في دفع الخراج في أوانه، وتقديم قوة عسكرية مساعدة. ذلك ما كان يطلبه الخليفة ونائبه في خراسان. وعن الاحداث السياسية في تلك الفترة، ذكر انه في العام ٧٢٨م جرت عملية تمرد قام بها سكان كوردير، المدينة التجارية الصناعية الضخمة آنذاك، الواقعة مكان تشيمباي الحالية أو قريباً منها. ولم تردنا أي معلومات فيما يتعلق بتفاصيل هذا التمرد ونتائجه وأسبابه. ولكن من الواضح، انه كان ثورة ضد الاستغلال التعسفي والضرائب الباهظة. وثمة حدث آخر جدير بالاهتمام، ألا وهو محاولة حاكم خوارزم انشاء تحالف مناوئ للعرب، ولوجود الوالي العربي في خوارزم، وللتخلص كلياً من وصاية الخلافة.

فمثلاً، تفيد المعلومات المستقاة من المراجع الصينية انه في العام ٧٥١م قصد الخوارزمشاه شاوشافار (شاوشي ـ فين المصادر الصينية) الصين، مقترحاً عقد حلف ضد العرب. ولكن بم انتهت سفرته؟ هل وصل الى عاصمة الصين أم لا؟ لم يرد في المصادر أي معلومات بهذا الشأن. وكما هو معلوم جرت في العام نفسه (٧٥١م) في تالاس معارك دموية طاحنة بين الصينيين والمسلمين. وكان الجيش الصيني بقيادة القائد المشهور غاوو ـ سيان ـ تشجي، في حين كان جيش المسلمين، الذي يضم عدداً كبيراً من المقاتلين من آسيا الوسطى، بقيادة زياد بن صالح، وكما هو معروف، مُني الصينيون بهزيمة فادحة ساحقة. وبعد ذلك، كان من المستبعد أن تمارس الصين سياسة عدوانية نشطة ضد العرب عامة، او ضد آسيا الوسطى وخوارزم.

ومن الاحداث المهمة في تاريخ خوارزم في القرن الثامن والنصف الاول من القرن التاسع، انقسام خوارزم الى دولتين مستقلتين: جنوبية، عاصمتها كيات

وهكذا، في العام ٧١٢م، هب العرب لنجدة الخوارزمشاه اسكاجوار في حربه ضد أخيه خورزاد والاقطاعيين الخوارزميين المتمردين. وسرعان ما ظهرت القوات العربية بقيادة الأمير عبد الرحمن في مدينة خزرساب، التي تُعد ثالثة المدن الرئيسية الخوارزمية بعد غورغيانج وفير، حيث ألقي القبض على خورزاد. وبموجب المعاهدة وافق الخوارزمشاه اسكاجوار على ان يدفع للعرب إتاوة حجمها ١٠٠٠٠ رأس من الماشية. كما أعدم ٤ آلاف من المتمردين مع زعيمهم خورزاد، بناءً على أمر من قتيبة ابن مسلم. الا ان قتيبة لم يستطع ان يسلب خوارزم سيادتها واستقلالها. ونقلاً عن ابي ريحان البيروني، اضطر لترك اسكاجوار على عرش خوارزم، ومغادر ة البلاد. ويضيف البيروني: «وكانت سلطة خوارزم في أيدي هذه الاسرة (أسرة افريغيت ـ ب. أ) تارة، وفي أيدي غيرها تارة، وظل الأمر على هذا المنوال الى أن فقدت سدة الحكم ومقام الشاه الرفيع بعد (وفاة الافريغيتي الأخير) الشهيد عبد الله محمد بن احمد بن عراق، ابن منصور بن عبدالله بن تركاساباس بن شاوشافار بن اسكاجاموك بن اسكاجاوار بن صابر بن صخر بن ارساموخ. في أيام الأخير ـ كما قلت ـ ظهر الرسول (صلعم)...» (*آثار الاجيال الماضية، ص ٤٨*).

لقد أثارت خيانة اسكاجوار، ولا سيما قتله لخورزاد والعديد من مؤيديه، سخط الشعب الخوارزمي، لأن خورزاد وأنصاره كانوا يرفضون ظلم الاقطاعيين والارسطوقراطيين، ويناضلون في سبيل العدالة الاجتماعية ومشاعية الأموال والأملاك. ونقلاً عن س. ب. تولستوف، فقد كانت ثورة خورزاد من حيث جوهرها «حركة شعبية تضم الفلاحين ودهماء المدينة، ومناوئة للاقطاعيين سكان القصور الفخمة، والنبلاء ذوي السلطة الطامحين للاقطاعية». (*متعقبو آثار الحضارة الخوارزمية القديمة العريقة، ص ٢٢٤*). لذا، وفور خروج الجيش العربي ـ كما ذكر البيروني ـ ثار الشعب الخوارزمي على اسكاجوار، الذي ألقي القبض عليه وقتل. أدى ذلك الى عودة قتيبة الى خوارزم مرة أخرى، فسحق الثورة بمنتهى القسوة والعنف، الأمر الذي نجد بخصوصه معلومات قيمة لدى أبي ريحان البيروني. وتولى العرش اسكاجاموك، ابن الخوارزمشاه المقتول. وعندئذ فر عدد كبير من أنصار خورزاد الى خاقانية الخزر المجاورة.

وأسنان السمك، وزيت الخروع، والعنبر، وجلود الخيول، والعسل، والجوز المقشور، والصقور، والسيوف، والدروع، والرقيق السلافيون، والغنم والبقر، كانت كل هذه الأشياء تصدر من بلغار، علاوة على ذلك العنب، كميات كبيرة من الزبيب، معجنات اللوز، والسمسم، والاقمشة الجوخية المقلمة، والسجاجيد، وقطع كبيرة من الجوخ، وأقمشة للهدايا، وأغطية من القماش، والقفول، والارانج[1]، والرماح، التي لا يستطيع استخدامها الا الرجال الاقوياء جداً، راخبان[2]، والامصال، والسمك، والقوارب...» ويلاحظ من القائمة الطويلة للسلع المصدرة من ترمذ، سمرقند، فرغانة، ايسفيجاب (سايرام) وتركستان، أنها تضم سلعاً كثيرة محلية الصنع. ويشير الثعالبي (٩٦١ - ١٠٣٨م) الى قماش «الديبقي» الواسع الانتشار في خوارزم والذي كان يصنع في مدينة دبيق المصرية، والبطيخ الخوارزمي الذي كان يجلب حتى الى قصر الخليفتين المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) والواثق (٨٤٢ - ٨٤٧م) في صناديق خاصة من الرصاص ومحاطة بالجليد. ومن المعلوم ايضاً، أن التجار الخوارزميين كانوا يتاجرون ليس في بلدهم فحسب، بل اشتهروا في الخارج ايضاً. ونقلاً عن الاسطخري، كانوا «الممثلين الرئيسيين لفئة التجار في خراسان ايضاً» وانه «كان بالامكان أن يرى المرء في كل مدينة من مدن خراسان عدداً كبيراً من الخوارزميين الذين يمتازون عن السكان المحليين، كما هو حاصل حالياً، بقبعاتهم العالية».

وكما نعلم، فإنّ التطوّر الاقتصادي يؤدي بدوره الى تطور العلوم والثقافة وتنشيطهما. ونقلاً عن المقدسي: «فانهم (أي الخوارزميين) اناس عقيدة وعلوم وفقه، وقدرة وموهبة وثقافة»، وإنه في مدن الخلافة نادراً ما وُجد إمام (عالم) في الفقه، والأدب او القرآن، إلا وكان لديه تلميذ خوارزمي يحرز تقدماً في العلوم». باختصار، لقد أسهمت خوارزم في النهضة الاقتصادية في القرنين ٩ - ١٠م، كما أسهمت بخارى في تطور العلوم والثقافة. وما ظهور مجمع المأمون

---

١ - نوع من الاقمشة القطنية.

٢ - نوع من الجبن.

(فير، فيل)، عاصمة خوارزم القديمة، ويحكمها خوارزمشاه (من سلالة افريغ)، وشمالية، عاصمتها جورجانيا (غورغيانج)، ويحكمها أحد الأمراء المحليين. ودامت الدولتان مستقلتين حتى قام حاكم اورغينتش مأمون بن محمد (المتوفى عام ١٠١٧م) الذي كان تابعاً للسامانيين، بالقضاء، في العام ٩٩٥م، على أسرة افريغ، وضم الجزء الجنوبي من خوارزم الى مملكته.

وإذا ما حللنا المعلومات الواردة في المراجع تحليلاً دقيقاً، فان خوارزم، في الفترة من ق «٩م» ـ ق «١٠م»، لم تتعرض لأي ضغوط خارجية كما كان وضعها في القرن السابق. ما من شك في ان ذلك ساعد على تطور الزراعة والصناعة والتجارة، ما ادى الى تطور المدن، مركز المنتجات الصناعية والتجارة. فالاسطخري (حوالي ٨٥٠ ـ ٩٧٤م) الذي كتب في الفترة من العام ٩٣٠ ـ ٩٣٣م، يورد مثلاً اسماء ١٣ مدينة من مدن خوارزم: خوارزم (كاس)، دارغان، خزراسب، خيوه، خوشميسان، ارداخوشميسان، سفرداز، نوزڤار، كردارانخوش، كاردار،باراتيغين، مازمينيا وجورجانيا. وبعد مرور ٥٠ عاماً، بلغ عددها، نقلاً عن المقدسي خلال الفترة (٩٤٧ ـ ١٠٠٠م) اكثر من ٣٠ مدينة، وهي: كاس، غارديان، ايخان، ارزاخيوه، نوكراغ، كاردار ميزداخكان، جاشيرا، سدوار، زاردوخ، باراتيغين، مادكامينيا (على الضفة اليمنى لأموداريا)، جورجانيا، نوزوار، زمخشر، روزوند، وازارماند، فاسكاخانكاس، راخوشميسان، مادميسان، خيوه، كاردارامخاس، خزراسب، خيغيربيند، جاز، دارغان، جيت، جورجانيا الصغرى، جيت الثانية، سادفار، ماساسان، كاردار، انداراستان (على الضفة اليسرى للنهر).

اما في المدن وفي الأرياف، والقرى الى حدٍ ما، وفي الفترة من (ق ٩ ـ ١٠م)، فقد كانت الصناعة والتجارة متطورتين جداً، زد على ذلك، ان خوارزم كانت تسهم في التجارة الدولية إسهاماً فعالاً، وذلك ما تؤكده قائمة السلع المصدرة الى المدن والبلدان الأخرى، والتي اوردها المقدسي: «.... فراء السمامير وحيوانات القاقم والسناجيب والظربان وبنات عرس والسناسير والثعالب والقنادس والارانب والماعز، والشمع، والسهام، وقشر البتولا، والقبعات العالية، وصمغ الاسماك،

كان الخليفة يعي جيداً أن مثل هذا التكريم والاهتمام إزاء رجل تابع له من مستوى شخص كالخوارزمشاه سيثير السخط الشديد لدى الغزنوي، إذ ان الخليفة بتصرفه هذا يساويه به (أي بالغزنوي). وذلك ما حصل بالفعل، وقرر سلطان محمود إخضاع خوارزم مهما كلفه من ثمن، فأرسل الى أبي العباس المأمون مبعوثاً حمله اقتراحاً بأن يخطب له على المنابر. ويقول أبو الفضل البيهقي: «لقد دب الرعب والفزع في قلب الخوارزمشاه من جراء قوة سلطان محمود التي أثارت الدنيا واقعدتها، واستبد به الأرق».

وعقد الخوارزمشاه اجتماعاً دعا اليه رجال الدولة والقادة العسكريين، وأعلن أنه يريد أن يخطب للسلطان محمود على المنابر «وإلا، فانه يخاف على نفسه وعليهم وعلى سكان الولاية». إلا أن معظم المجتمعين أعربوا عن رفضهم، ولم يخطب باسم السلطان. وبعد ذلك قام الخوارزمشاه باتخاذ خطوات للتحالف مع القاراخانيين ضد السلطان محمود. ولما علم السلطان بذلك نقل مقر قيادته من غزنة الى بلخ، واخذ يستعد لمحاربة الخوارزمشاه. وبعد ذلك، وجه الى الخوارزمشاه انذاراً نهائياً جاء فيه: «تخطب (باسمي) طواعية وبمحض رغبتك... وترسل (الينا) التبرعات والهبات... التي تليق بنا». فخاف الخوارزمشاه وقرر أن يخطب باسم السلطان في نسى وفاراو والمدن الاخرى ما عدا فير وغورغيانج، وأرسل الى السلطان ٨٠٠٠٠٠ دينار نقداً و٣٠٠٠ رأس من الخيل، مع وفد من الشيوخ والقضاة والوجهاء، «لحل هذه المشكلة، والمحافظة على العلاقات الودية، وكي لا تثور الاضطرابات والفوضى». إلا أن الخوارزمشاه، ابا العباس المأمون الثاني، قد اخفق في منع وقوع الكارثة. فقامت القوات المتمركزة في خزراسب، بقيادة الحاجب الاكبر علي ـ تيغين البخاري، بسحق المعارضين كافة وإبادتهم، وإذ تركت مواقعها زحفت الى غورغيانج، وحاصرت العاصمة. واختفى الخوارزمشاه داخل حصن (كوشك)، الا أنهم أحرقوه ودخلوا الى مخدعه وقتلوه. ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي، أن هذه الأحداث قد جرت في يوم الأربعاء في أواسط شهر شوال ٤٠٧م (١٦/ مارس/ ١٠١٧م). وأُجلس على العرش ابن اخيه (باردار ـ زاده) أبو الحارث محمد بن علي

للعلوم في العاصمة الخوارزمية، حيث عملت مجموعة من نخبة العلماء البارزين أمثال: أبي نصر منصور بن عراق، الخوارزمي، كاماري، الكاسي، أبي ريحان البيروني، ابن سينا وغيرهم، الا نتيجة لهذه النهضة الاجتماعية الاقتصادية. واضافة الى النهضة الاجتماعية الاقتصادية، ينبغي الأخذ في الاعتبار التربة الثقافية الخصبة المحلية المتشبعة بالثقافات والآداب القديمة العريقة للشعوب المجاورة، وخصوصاً ثقافة الشعبين الايراني والهندي.

حكم المأمونيون خوارزم المتحدة مدة ربع قرن فقط (حوالى ٩٩٢ ـ ١٠١٧م)، والمعلومات عن حكمهم قليلة جداً. وأورد أبو الفضل البيهقي (٩٩٥ ـ ١٠٧٠م) في كتابه (تاريخ مسعود) ما مضمونه ان المأمونيين، ولا سيما أبا علي مأمون الاول ابن محمد (٩٩٢ ـ ٩٩٧م) وخليفته أبا الحسن علي بن المأمون الاول (٩٩٧ ـ ١٠٠٩م)، الذين استغلوا تدهور أوضاع الساميين وضعفهم، وسعوا بصورة علنية إلى تحقيق استقلال خوارزم، وباشروا بتعزيز قوتها العسكرية، ما اثار تخوفات سلطان محمود الغزنوي والخليفة. لقد كان الأول خائفاً على خراسان، أما الخليفة القادر (٩٩١ ـ ١٠٣١م) فلم يكن راغباً في ظهور دولة مستقلة أخرى في شرق الخلافة. وبعبارة أخرى، إذا كان الغزنوي يطمح الى إخضاع الدولة الغنية المتقدمة ثقافياً لسلطته، فقد كان الخليفة يسعى الى إثارة النزاعات بين هاتين الدولتين لاضعافهما، ثم لابقائهما في فلك دولته، ولو اسمياً. كان هدفهما واحداً إلا ان تكتيكهما كان مختلفاً. فقد قرر الغزنوي مصاهرة المأمونيين، وزوج أختيه: الاولى لأبي الحسن علي بن المأمون الاول، والثانية لأخيه ابي العباس المأمون الثاني (٩٠٩ ـ ١٠١٧م). هذه هي السياسة المفضلة لدى حكام الشرق إزاء من ينوون اخضاعه لنفوذهم في المستقبل القريب. أما بالنسبة للخليفة، فمن الجلي أنه كان يحاول إثارة الخلاف واشعال فتيل الحرب بين الخوارزمشاه وسلطان محمود، كما ذكرنا آنفاً، وانهاك قواهما. وهكذا، ذات يوم أرسل مبعوثه الى خوارزم وبواسطته ـ كما ذكر ابو الفضل البيهقي ـ « بعث له (اي الى الخوارزمشاه ـ ب. أ) ثوباً، و كتاب تكريم، ولواءً ولقب شرف «عين الدولة وزين الملكة» (*تاريخ مسعود، ص ـ ٨٠٩*).

منه قائد شرطة (شيخني) في خوارزم. بيد أنه كان نائب الوالي، ذلك أن الوالي الذي عين كان ايكينتشي كوتشكار، احد مماليك سلطان سانجار، ابن الملك شاه الأول. بعد وفاة انوشتيغين (١٠٩٧م) خلفه على الولاية ـ ولاية خوارزم ـ إبنه ـ ابن انوشتيغين ـ كتب الدين محمد، الذي نال لقب «خوارزمشاه». وفي عام ١١٠٠م عينه سلطان سانجار، حاكم ايران الشرقية، (١٠٩٧ ـ ١١١٨م) حاكماً على خوارزم، وذلك تقديراً له لتفانيه في خدمته ومشاركته الدائمة في الأعمال العسكرية ونقله الى مرو، سنوياً، ايرادات الضرائب والخراج طيلة فترة حكمه الذي دام ٣٠ سنة (١٠١٧ ـ ١١٢٧م).

وبعد وفاة قطب الدين محمد، عين السلطان سانجار محله ابنه أبا مظفر علاء الدين اتسيز. وكان هذا انساناً ذكياً شجاعاً، يقدر العلم والفن، ويجيد الشعر ويهتم بالعلماء ورجال الفن والأدب. في بادئ الأمر، كان علاء الدين اتسيز مخلصاً ووفياً في خدمته لسلطان سانجار، الذي اصبح الحاكم الأعلى (١١١٨ ـ ١١٥٧م) لدولة السلاجقة، إذ سانده في سحق ثورة ارسلان محمد بن سليمان في العام ١١٣٢م، وتسلم قيادة الجناح الأيسر (جافانغار) لجيشه في أثناء محاربة قوات مسعود بن محمد تابار، وكان الى جانب السلطان في حملته على الغزنوي بهرام شاه في خريف ١١٣٥م وهلمجراً. وهكذا مضت عشر سنوات (١١٢٨ ـ ١١٣٨م)، إلا أنه ظل طوال هذه المدة يفكّر دائماً في الحصول على الاستقلال. ولذا حاول جاهداً تعزيز سيادة دولته وتقوية جيشه. وإضافة الى ذلك، اعتدى على الاوغوز في سرداريا السفلى واستولى على عاصمتهم جيند من دون علم السلطان. كما احتل آنذاك مينغ ـ كيشلاك.

أدى ذلك الى استياء السلطان سانجار، وفي أكتوبر ١١٣٨م، زحف بجيش كبير على خوارزم، حيث دارت معركة بينه وبين تابعه السابق في موقعه خزراسب، هزم فيها علاء الدين اتسيز، ومنح السلطان خوارزم كاقطاع لابن أخيه سليمان شاه. ولكن حال عودة السلطان الى مرو (عام ١١٣٩م) تمكن اتسيز من طرد سليمان شاه واستعادة خوارزم. وكي لا تزداد العلاقات تعقيداً بينه وبين السلطان،

بن المأمون وعمره ١٨ سنة. إلا أن أحداً من الأمراء والوجهاء لم يرغب في إطاعته، وراح كل يتصرف على هواه».

وهكذا بقيت خوارزم في أيدي المغتصبين مدة اربعة اشهر. حتى إذا سمع سلطان محمود بذلك، قرر «الثأر لدم صهره، وقتل قاتل صهره والاستيلاء على المملكة الموروثة». وبعد استعداد تام، وفي الأيام القائظة من العام ١٠١٧م، زحف السلطان على خوارزم، حيث أباد القوات الخوارزمية عن بكرة أبيها، أما قادتها: الب ـ تيغين البخاري، خومارطاش شيرباي، وشاد ـ تيغين خاني، فقد أُلقوا ـ بناءً على أمر سلطان محمود ـ تحت الفيلة لتدوسهم. ودخل سلطان محمود مدينة غورغيانج، في حين تم عزل أبي حارث محمد. وجلب سلطان محمود خزينة خوارزم الغنية الى عاصمته. وهكذا تم القضاء على أسرة المأمونيين (١٠١٧م)

وطوال سبعة عشر عاماً (١٠١٧ ـ ١٠٣٤م)، بقيت خوارزم تحت حكم الغزنويين، يشرف على ادارة شؤونها أحد المقربين من سلطان محمود، وهو الأمير التون ـ طاش وابناه: هارون بن التون ـ طاش، واسماعيل خان بن التون ـ طاش.

وخلال الفترة ما بين (١٠٤١ ـ ١٠٧٧م) حكمها الاوغوزي «يابغو» من جيند: شاه ـ ميليا والمقربون منه.

وفي العام ١٠٩٧م انتقلت السلطة في خوارزم إلى أيدي الأنوشتيغيين (١٠٩٧ ـ ١٢٣١م)، الذين كانوا في بادئ الأمر تابعين للسلاجقة. وبالتالي، أصبحت خوارزم إبان حكمهم، أعظم دولة في آسيا الوسطى وايران، وتشتمل مساحتها، علاوة على خوارزم، ما وراء النهر، وخراسان، ومازنداران، وكيرمان، وسيستان، والعراق وبلاد العرب، واذربيجان، وغزنة وبلداناً أخرى.

كان انوش ـ تيغين مؤسس السلالة الجديدة، وهو من أصل تركي، وعبداً لـ«سيناخاسالار» السلجوقي عز الدين أونار بيلغا ـ تيغين (المقتول في العام ١٠٩٨م)، الذي بلغ في عهد ملك ـ شاه الأول (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) منصب «تاشتدار» (أمين أدوات غسيل السلطان). وفي العام ١٠٩٧م عين السلطان هذا الشخص المقرب

منطقة كاتاوان الصغيرة الواقعة على بعد خمسة فراسخ عن سمرقند، وانتهت بانتصار الكاراكيتاي. وذكر ابن الاثير ان السلاجقة تكبدوا خسائر جسيمة. وهرب سلطان سانجار مع عدد صغير من خدمه، فانتهز الخوارزمشاه اتسيز هذه الفرصة واستولى على مجموعة من المناطق الشاسعة التابعة للسلاجقة: سيرخاس (١١٤١م)، مرو (١١٤٢م)، نيسابور (١١٤٢م)، بيهق (١١٤٢م) وفاريوماد (١١٤٢م).

وتجدر الإشارة هنا الى الحلف القديم المعقود بين الخوارزمشاه والكاراكيتائيين. حيث اتخذ الخوارزمشاه موقفاً حيادياً في معركة كاتاوان ولم يساعد سلطان سانجار؛ الأمر الذي فعله اتباعه الآخرون. وناهيك عن ذلك، فقد وقع اتسيز معاهدة صداقة وتعاون مع «غورخان»، وتقديراً لذلك عين غورخان قريبه اتما ـ تيغين شريكاً له في حكم بخارى بدلاً من الإمام أحمد بن عبد العزيز من آل برهان.

وبعد مرور زهاء ثلاث سنوات على هذه الأحداث استطاع سلطان سانجار إعادة الأوضاع الى ما كانت عليه من قبل، وفي العام ٥٣٨هـ (١١٤٣ ـ ١١٤٤م) سير جيشاً كبيراً لمحاربة الخوارزمشاه اتسيز وحاصر غورغيانج العاصمة، بيد انه أخفق في الاستيلاء عليها. أما اتسيز فتصرف بطموح أكبر، وما إن عاد السلطان الى مرو (عام ١١٤٥م) حتى خفّ الى المناطق الواقعة في سرداريا السفلى، واحتل مدينة جيند.

وفي خريف ١١٤٧م، زحف سلطان سانجار مرة ثانية على خوارزم، وحاصر الخوارزمشاه اتسيز في قلعة خزراسب مدة شهرين، ثم انقض عليها واحتلها من دون معارك. ثم اقترب عن كثب من غورغيانج. ورأى الخوارزم عدم جدوى الاستمرار في المقاومة، فقرر عقد اتفاقية سلام مع السلطان، وخرج من القلعة المحاصرة، وفي ٢ يونيو ١١٤٨م، مثل أمام سلطان سانجار معرباً عن ولائه له.

إلا أن اتسيز نكث بعهده مرة أخرى، ففي ربيع ١١٥٢م، سار الى ضفاف سرداريا، واحتل جيند، حيث عين نائباً له فيها.

بعث اتسيز اليه رسولاً لابلاغه رغبته في تقديم الولاء والطاعة للسلطان والتعبير عن اعتذاره. قبل السلطان اعتذاره، وما كاد يمر بعض الوقت حتى عاد اتسيز لمواصلة سياسته السابقة. وفي العام ١١٣٩م اجتاح غورغون واحتل منطقة كابود- جام. وفي العام نفسه، اعتدى على بخارى وقتل نائب سلطان سانجار فيها، ودمر حصونها وعاد بغنائم كثيرة. ولكن ما إن علم بزحف الكاراكيتائيين حتّى خاف على مملكته وعاد الى خوارزم، واعتذر مجدداً للسلطان وأعرب عن طاعته له.

ومن ناحية أخرى، ولاضعاف يقظة الخليفة المقتدر (١١٣٦ - ١١٦٠م)، بعث اتسيز رسولاً الى بغداد أيضاً، أعرب بواسطته عن ولائه وطاعته للخليفة. ورداً على ذلك أرسل له الخليفة ثياب شرف وهدايا وكتاباً يعترف به فيه ملكاً على الأراضي الخوارزمية. وبموجب هذا الكتاب خُلع على اتسيز لقب «سلطان». ومنذ ذاك الحين، بالتحديد (عام ١١٤١م) باشر علاء الدين اتسيز بصك النقود باسمه. وباختصار، بدأ عهد استقلال خوارزم اعتباراً من العام ١١٤١م. ولكن كان لا بد ايضاً من ان يتخلص من وصاية السلطان سانجار. ولذا عاد يتزلف اليه من جديد، فراح يرسل له الهدايا ويعرب عن ولائه وطاعته له. لكنه كسياسي مجرب، كان يعرف جيداً دنو اليوم الذي ستتخلص فيه خوارزم من التبعية وستنال فيه استقلالها التام. وبالفعل حان هذا اليوم، وظهر في آسيا الوسطى عدوّان خطيران لسلطان سانجار: الكاراكيتاي والاغوز.

وكما أشرنا آنفاً، اجتاح الكاراكيتائيون ما وراء النهر في العام ١١٣٧م. وقام حاكم سمرقند القاراخاني محمود بن أرسلان - خان بمحاربة الـ «غورخان» في موقعة خوجيند، التي انتهت بهزيمة القاراخاني. وبعد دخول سمرقند، بعث محمود ابن ارسلان - خان رسولاً الى سلطان سانجار يطلب منه العون. فقام سلطان سانجار بجمع جيش كبير من ولاياته كافة: غور، وغزنة، وسيستان، ومازانداران، وفي يوليو ١١٤١م، زحف إلى ما وراء النهر، وقرر بالدرجة الاولى تأديب الكارلوك - اعدائه القدماء - إلا أنهم تفادوه وهربوا الى الكاراكيتائيين.

ودارت المعركة بين سلطان سانجار والكاراكيتاي في ٩ سبتمبر ١١٤١م، في

بادئ ذي بدء، أراد الخوارزمشاه ايل ـ أرسلان وضع حد لأعمال آي ـ آبا العدوانية، فشن حملة ضده وحاصر نيسابور. على أن هذه الحملة باءت بالفشل، فعقد معاهدة سلام مع آي ـ آبا، وعاد الى خوارزم. بيد أن آي ـ آبا لم يكف عن اعماله العدوانية، إذ ما كاد ايل ـ ارسلان يغادر ضواحي نيسابور، حتى قام في العام ١١٦٥م، بمحاصرة نسى، المجاورة لاراضي الخوارزمشاه الذي تأهب لمحاربته. فما إن علم آي ـ آبا بذلك حتى فك الحصار وتراجع الى نيسابور. أما وضع خوارزم، فكان يتعزز من يوم لآخر. واعترف عمر بن حمزة النسوي بالسلطة العليا للخوارزمشاه وخطب باسم ايل ـ أرسلان على المنابر. وبعد ذلك، احتل الأخير ديخيستان دون أي صعوبة، وهرب حاكمه الأمير ايبك الى آي ـ آبا واتحد معه. وسرعان ما اقاما اتصالات مع سلطان العراق سلطان ـ شاه والاتابك ايلديغيز (١١٣٧ ـ ١١٧٦م).

وفي العام ١١٦٧م، شن الخوارزمشاه حملة ضد الاتابك ايلديغيز، ودارت بينهما معركة في بيستام، إلا أن القوى لم تكن متكافئة. ورغم ذلك تمكن ايل ـ ارسلان من احتلال بيهق وسابزيوار، فاضطر الأمير آي ـ آبا للفرار. عندئذ احتلت الجيوش الخوارزمية نيسابور أيضاً، ولم يبق أمام آي ـ آبا سوى الاعتراف بالسلطة العليا للخوارزمشاه. ولما تلقى الاتابك ايلديغيز هذا النبأ اضطر إلى مغادرة بيستام. وهكذا بدأت انتصارات الخوارزمشاه في ايران الغربية.

كذلك استطاع ايل ـ ارسلان أن يستميل أيضاً الى جانبه إينانتش ـ خان، حاكم الري ومحافظتها. وفي العام ١١٦٧م، قامت القوات الخوارزمية بالاشتراك مع قوات اينانتش ـ خان بإلحاق الهزيمة بسلطان ارسلان ـ شاه والاتابك جهان بهلوان ابن ايلديغيز في موقعة «ساوى». وعقب ذلك، توغلت القوات الخوارزمية في اذربيجان واحتلت مدنها المهمة مثل ابهر، وزاندان وقزوين.

عين اينانتش ـ خان نائباً للخوارزمشاه في عراق فارس واذربيجان. اما بالنسبة إلى الكاراكيتائيين، فانهم اجتاحوا أراضي خوارزم في العام ١١٧١م، ما اضطر الخوارزمشاه ايل ـ أرسلان الى الانسحاب بقواته الرئيسية الى أموليا. وكي

في خمسينات وستينات القرن ـ ١٢م، وقعت دولة السلاجقة وسلطان سانجار في مأزق حرج. ففي العام ١١٥٢م، قام الغوريون، أتباع السلاجقة في الماضي، بتدمير جيش سلطان سانجار، واحتلال بلخ، ثم غزنة، واعلنوا استقلالهم، وكفوا عن إرسال الإتاوات السنوية الى مرو. وفي تلك السنة نفسها احتل الغوري علاء الدين حسين مدينة هرات. وسرعان ما شقت سيستان عصا الطاعة. ومن جانب ما وراء النهر تضاعفت تهديدات الكاراكيتائيين.

ولقد ساعدت هذه الظروف الخوارزمشاه اتسيز على نيل الاستقلال التام لخوارزم عن السلاجقة. وينبغي لنا هنا القول إن اتسيز يعتبر مؤسس الدولة الخوارزمشاهية ـ الأنوشتيغية.

وبعد علاء الدين اتسيز جاء ابنه ايل ـ ارسلان (١١٥٦ ـ ١١٧٢م). وكانت أول خطوة أقدم عليها أن طهر البلاد من «الاعشاب الطفيلية الضارة»، فسجن أخاه سلطان ـ شاه، وأعمى أخاه الثاني، وأعدم جل الذين كانوا يؤيدون سلطان ـ شاه. وكان من خطواته أيضاً أنه زاد رواتب العسكريين وحجم الاقطاعات، الأمر الذي سبق لنا ان تحدثنا عن جوهره آنفاً.

ان فترة حكمه التي دامت ١٧ سنة، أمضاها في صراع مع السلطان العراقي، وذلك لتوسيع حدود مملكته على حساب إيران الغربية واذربيجان، وتحرير البلاد من سلطة الكاراكيتائيين.

وحقق ايل ـ ارسلان نجاحات في خراسان والعراق بفضل النزاعات الداخلية التي بدأت هناك فور وفاة سلطان سانجار (عام ١١٥٧م). وكان من أبرز الأمراء المتنازعين: ايبيك، سونكور، آي ـ تيغين وخصوصاً آي ـ آبا، الذي احتل في العام ١١٦٢م نيسابور، وأعمى ولي العهد سلطان محمود ـ خان وابنه جلال الدين، وخطب على المنابر له وللخليفة المستنجد (١١٦٠ ـ ١١٧٠م). وبعد ذلك، سرعان ما استولى على طوس، وابي ورد، وشهريستان، وبيستام ودامغان، وفي العام ١١٦٣م استولى على كوميس.

نيسابور، أما توركان ـ خاتون، فألقي القبض عليها وأعدمت بأمر من تيكيش.

خاف توغان ـ شاه، خليفة آي ـ آبا (١١٧٤ ـ ١١٨٥م)، أن يجير سلطان ـ شاه ويناصره، فذهب يطلب مساعدة الغوريين، سلطان غياث الدين وشهاب الدين، اللذين تفهما وضعه، وكانا يدركان تماماً الوضع المتأزم المعقد آنذاك في ما وراء النهر، حيث كانت الأزمة قد بلغت أوجها بين الخوارزمشاه والكاراكيتائيين. وتكمن المشكلة في ان تيكيش قد خرق الاتفاقية التي كان قد عقدها سابقاً مع غورخان، ورفض إرسال الإتاوات له، وقتل بيده مبعوث الكاراكيتائيين الذي قدم الى غورغيانج لأخذ الاتاوات. من يدري؟ قد يكون بالإمكان الحصول على اراضٍ جديدة في خوارزم؟

إلا أن سلطان شاه لم يجلس في «غور» مكتوف اليدين، بل سارع إلى بالاساغون وحصل على دعم من غورخان، الذي أمده بعدة آلاف من المقاتلين، استطاع بمساعدتها احتلال ساراخس،وطوس، وزيم، ونسى، وأبي ورد ومرو. واتّخذ مرو مقراً له. وبعد ذلك، وفي ١٣ مايو ١١٨١م، وقرب نيسابور، تمكن من تحطيم جيش توغان ـ شاه السالف الذكر شر تحطيم حتى لم تعد له قائمة، ولم تنجح محاولاته في الاستعانة بتيكيش أو السلاطين الغوريين.

وفي ربيع ١١٨٥م، وفي عهد سانجار ـ شاه، خليفة توغان ـ شاه، تعاظم نفوذ سلطان ـ شاه في نيسابور، وتمكن من استدراج عدد كبير من أمراء الحاكم الشاب (سانجار ـ شاه)، كما استمال المستائين من غطرسة أتابكة مينغلي ـ تيغين.

وفي ربيع ١١٨٦م، وكي لا يتمكن سلطان شاه من تعزيز قوته العسكرية، هاجم الخوارزمشاه خراسان واحتل نيسابور بعد حصار دام شهرين. فقدم له سانجار شاه واتابكته الولاء. ولكن بعد مغادرة خوارزمشاه، قام مينغلي ـ تيغين بإلقاء القبض على مندوبيه وأرسلهم الى سلطان ـ شاه في مرو. إن هذه العملية التي قام بها الاتابك المتهور، أدت إلى قيام الخوارزمشاه بحملة أخرى على خراسان، ودخوله نيسابور في ٢٧ مايو ١١٨٧م، وإلقاء القبض على مينغلي ـ تيغين وإعدامه. وعين تيكيش ابنه الاكبر نصر علاء الدين ملك ـ شاه حاكماً على

لا يتمكن الكفار من احتلال العاصمة فوراً، أمر بفتح عيون خزانات الماء واغراق الأراضي المحيطة بـ «غورغيانج». إلا أن مرض ايل ـ أرسلان وعدم مشاركته في القتال أديا الى انتصار الكاراكيتائيين وتدميرهم الجيش الخوارزمي، على أنهم، لم يتمكنوا من الاستيلاء على العاصمة.

في ١٨ مارس ١١٧٢م، توفي ايل ـ ارسلان. وبدأ نزاع حاد على العرش بين ابنيه: تيكيش وسلطان ـ شاه.

وكما هو معلوم، في الأيام الأخيرة من حياة ايل ـ ارسلان، لم يكن ابنه الأكبر تيكيش الى جانبه، إذ كان في جيند البعيدة حيث يشغل منصب والٍ. فقامت توركان ـ خاتون ذات السلطة والنفوذ وزوجة ايل ـ ارسلان الراحل، بالاتفاق مع الأمراء وأقطاب الدولة، بتتويج سلطان ـ شاه ـ الابن الأصغر ـ على العرش. ولما رفض تيكيش الاعتراف به كرئيس للدولة، أرسلت توركان ـ خاتون جيشاً الى جيند لجلب ابنها المتمرد هذا الى غورغيانج بالقوة. وحينما علم تيكيش بذلك، ترك جيند وذهب الى بالاساغون، قاصداً خان الكاراكيتائيين الأعظم، طالباً المساعدة منه، ومقابل المساعدة العسكرية، تعهد تيكيش بإرسال الإتاوات سنوياً الى بالاساغون. أمده غورخان بجيش، ولدى اقتراب تيكيش والكاراكيتائيين من غورغيانج، هرب سلطان ـ شاه وتوركان ـ خاتون من العاصمة، وذهبا الى نيسابور، الى الأمير آي ـ آبا الآنف ذكره. ودون أي مقاومة احتل تيكيش غورغيابج وتولى عرش خوارزم. وبحسب المعلومات التي أوردها ابن الأثير، جرى ذلك في ١١ ديسمبر ١١٧٢م.

بعد مضي عامين، وفي خريف العام ١١٧٤م، بدأت حملة سلطان ـ شاه والأمير آي ـ آبا المشتركة على خوارزم، ودارت معركة بين الحليفين وتيكيش في ١١ يوليو ١١٧٤م في سوبورلي الواقعة على بعد ٢٠ فرسخاً من عاصمة خوارزم، حقق فيها تيكيش انتصاراً تاماً، وأسر آي ـ آبا، وأعدمه بناء على أمر الخوارزمشاه. في هذه المرة، هرب سلطان ـ شاه ووالدته الى ديخيستان، التي قام تيكيش بمحاصرتها واحتلالها، على أن سلطان ـ شاه استطاع الفرار مرة أخرى ولجأ الى

بالعودة الى البلاد. الا ان سلطان ـ شاه، مع المقربين من السلطان، رفع الحصار وانسحب الى مرو.

وفي ربيع العام التالي ـ ١١٩٣م ـ قرر الخوارزمشاه محاربة سلطان ـ شاه. وهنا توسط الأمراء وكبار المسؤولين بين الأخوين للمرة الثانية. وفي معمعان المباحثات، قام بدز الدين تشاكير، آمر قلعة سيرخاس، بتقديم مفتاح بوابة القلعة وخزينة سلطان ـ شاه الى الخوارزمشاه. ان خيانة الآمر كانت ضربة قاضية لسلطان ـ شاه. وهكذا انتهت حرب الـ ١٢ سنة بين الأخوين سلطان ـ شاه وتيكيش على عرش خوارزم، لصالح تيكيش، الذي أصبحت خراسان بأسرها تحت سلطته.

ويعتبر عام ١١٩٣م بداية لرقي دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين.

قبل ذلك، وفي الفترة التي تلت العام ١١٨١م، كانت قوات تيكيش قد وصلت الى تاراز وبالاساغون ودحرت الكاراكيتاي، وفي العام ١١٨٢م، اجتاحت ما وراء النهر واستولت على بخارى، حيث القيت الخطب باسم السلطان تيكيش.

وجدير بالذكر، أنه في تلك الأعوام، أقام الخوارزمشاه علاقات حسن جوار مع حاكم غيلان ومازانداران حسام الدولة ارداشير (١١٧١ ـ ١٢٠٥م)، واتابيك اذربيجان «جهان بهلوان» (١١٧٥ ـ ١١٨٦م)، ثم ـ خليفته كيزيل ـ أرسلان (١١٨٦ ـ ١١٩١م).

والى جانب ذلك، واصل السلطان تيكيش الحرب من أجل السيادة على العراق العجمي وفي العام ١١٩٣م، احتل الري وقلعة تبارك.

وفي ٤/مارس/١١٩٤م، قام السلطان السلجوقي، طغرل الثالث، سلطان العراق (١١٧٦ ـ ١١٩٤م)، بمهاجمة طليعة الجيش الخوارزمي في موقعة الري، إلا أنه فشل في هجومه، وقتل. كان طغرل الثالث آخر الحكام السلجوقيين في العراق. وبعد ذلك، استولى السلطان تيكيش على همدان (٢٥ يونيو ١١٩٤م) وعلى قسم كبير من العراق العجمي، وأعطى المناطق والأقاليم التي احتلها لأمرائه البارزين: اصفهان ـ لـ «كولوغ ـ إينانتش، همدان ـ لـ «كاراغيوز»، الري ـ لابنه يونس خان.

نيسابور، ثم عاد الى خوارزم.

أما سلطان ـ شاه، الذي كان يعد العدة في مرو وسابزيوار، فهجم على نيسابور، فور مغادرة الخوارزمشاه، بيد أنه أخفق في احتلالها. ولما علم باقتراب قوات جديدة قادمة من خوارزم، فك الحصار وقفل عائداً الى مرو.

في العام ١١٨٨م، وبفضل وساطة الوجهاء وعلماء الدين، عقدت بين الأخوين، تيكيش وسلطان ـ شاه، معاهدة سلام نصت شروطها على اعتراف سلطان ـ شاه بالسلطة العليا لأخيه، واطلاق سراح مؤيديه، أما تيكيش فأنعم على أخيه بمقاطعات جام، بوخارز وزيرتسوم غير الكبيرة.

وفي ٤ يوليو عام ١١٨٩م، جرت في مدينه راديكان احتفالات فخمة مهيبة بمناسبة تتويج تيكيش. وبعد ذلك عاد الخوارزمشاه الى غورغيانج.

لكن سلطان ـ شاه لم يكتف بما حققه، وواصل حشد المزيد من القوات الجديدة، محاولاً توسيع مملكته في خراسان. وإضافة الى ذلك طلب في العام ١١٩٠م، من شهاب الدين الغوري أن يتنازل له عن هرات، بوشينج وبدغيس، إلا أن طلبه رفض. وفي العام نفسه، جرت بينهما، بالقرب من مرو، معركة طاحنة دموية، هزم فيها سلطان ـ شاه. وبعد ذلك حاول الفرار الى الكاراكيتائيين، الا أن تيكيش اعترض سبيله ولم يمكنه من اللجوء اليهم. وعندئذ استولى الخوارزمشاه على سيرخاس ودمر قلعتها. أما سلطان ـ شاه، الذي كان يتعقبه تيكيش، فقد احتمى بالغوريين، فأرسل الخوارزمشاه الى الغوريين رسولاً، وطلب منهم تسليم سلطان ـ شاه، لكن غياث الدين الغوري رفض تلبية طلبه، وعامل الرسول بفظاظة، كما أنه علاوة على ذلك، جهز قوات غورية بقيادة الب ـ غازي وتاج الدين حسن لمحاربة تيكيش. الا أن معارك لم تنشب بين الطرفين، إذ عاد سلطان ـ شاه من منتصف الطريق.

أما السلطان تيكيش، وبعد ان حصن الخطوط الخلفية، قام في العام ١١٩٢م، بشن حرب على العراق العجمي، ووصل حتى الري. في تلك الأثناء، اغتنم سلطان ـ شاه غياب أخيه واجتاح خوارزم وحاصر عاصمتها. ولما سمع تيكيش بذلك، سارع

«مرفررود»، حيث دارت معركة لم ينتصر فيها أي من الطرفين، وبعد تدمير جسور نهر مرفررود تراجع الخوارزمشاه باتجاه مرو. وفي سبتمبر ١٢٠١م اتجه صوب نيسابور، ولما وصل الى نسى وأبي ورد علم بذلك هندو ـ خان، فترك مرو وهرب الى فيروزكوخ واحتمى بالغوريين. وهنا قام الخوارزمشاه بالاستيلاء على مرو، وفي ١٨ سبتمبر ١٢٠١م بلغ مشارف نيسابور، التي احتلها بعد حصار دام شهرين. ومن ثم استولى على سيراخس.

وفي يناير ١٢٠٣م توفي غياث الدين، واعتلى عرش هرات شهاب الدين (١٢٠٣ ـ ١٢٠٦م)، في وقت كانت النزاعات الداخلية تسود دولة الغوريين، الأمر الذي استغله الخوارزمشاه وسار بقواته الى خراسان. وفي الموقعة التي جرت على بعد ١٠ فراسخ من مرو، انتصر قطب الدين محمد. وبعد نصف شهر من الحصار والمعارك، استولى على مرو والقى القبض على الوالي الغوري جاربيك وقتله. وفي يناير من العام التالي، ١٢٠٤م، قام الخوارزمشاه بتطويق هرات، وبعد حصار طويل منهك، تمكن من احتلالها. واضطر الحاكم الغوري الب ـ غازي إلى تسليم المدينة وقبول عدد من التعهدات والالتزامات، منها: التعهد بالكف عن مشاركة الغوريين في محاربة الخوارزمشاه. وبعد ذلك اكتسح الخوارزمشاه دائرة بادغيس.

حتى اذا فرغ شهاب الدين الغوري من القضاء على حركة التمرد والعصيان في لاهور، قرر مهاجمة خوارزم للثأر من الخوارزمشاه. إلا أن الأخير، كان قد اتخذ الاحتياطات الدفاعية اللازمة: فتح خزانات الماء وأغرق الأراضي المحيطة بعاصمة خوارزم، وعزز دفاعات المدينة، وأجرى تعبئة السكان وتجنيدهم. وبعد مرور شهر، جفّت الاراضي المحيطة بالعاصمة، فجرت معركة دموية طاحنة على ضفة نهر كارا ـ سو، انتصر فيها الغوري. وتوارى الخوارزمشاه خلف أسوار غورغيانج الحصينة. قام شهاب الدين بمحاصرة العاصمة من الجهات كافة، إلا أن سكانها وقفوا وقفة رجل واحد للدفاع عنها. وبفضل مساعي توركان ـ خاتون وعلماء الدين المسلمين (الامام شهاب الدين الخيواقي وغيره) تم حشد جيش عظيم. في حين استعان الخوارزمشاه بالغور ـ خان، الذي أمده بجيش مؤلف من آلاف الجنود بقيادة تاج

ومن المعلوم، أن قوات الخليفة الناصر (١١٨٠ـ١١٢٥م) كانت قد حاربت الى جانب الخوارزمشاه ضد طغرل الثالث. لذا كان الخليفة يأمل في أن يتنازل له تيكيش عن جزء من اراضي العراق العجمي، إلا أن ذلك لم يحدث. وبعد ذلك، أرسل الخليفة الى الخوارزمشاه ثياب شرف وكتاباً رسمياً ينص على ضم الأراضي، التي كانت تابعة لطغرل، الى أملاك الخوارزمشاه ودعاه الى بغداد للقائه. كان ذلك عبارة عن خطة دبرها الخليفة للقضاء على الخوارزمشاه، الذي لم تفته هذه اللعبة ـ الخطة، ورفض السفر الى بغداد. وبعد ذلك، تدهورت العلاقات بينهما تدهوراً تاماً وبصورة نهائية.

وباختصار وكما ذكر الاكاديمي ز. م. بونياتوف، فإن الفضل في تعزيز قوة دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين يعود، الى حد كبير، لعلاء الدين تيكيش.

بعد وفاة السلطان تيكيش، خلفه على العرش ابنه قطب الدين محمد، الذي اضطر في الأيام الأولى من حكمه الى خوض نضال ضد اقربائه، وإلى اجراء تغييرات جذرية في جهاز الدولة، ولا سيما بين الولاة. فمثلاً استدعى أخاه تاج الدين علي شاه من اصفهان وعينه في خراسان (مركز نيسابور)، وعزل هندو ـ خان، ابن اخيه، والي نيسابور (خراسان) الا أن هندو ـ خان رفض الحضور الى غورغيانج وهرب الى مرو ومن هناك الى غور حيث التجأ الى غياث الدين، العدو القديم للخوارزمشاه، الذي قرر انتهاز المناسبة المؤاتية، فاحتفى بهندو ـ خان ومنحه إقطاعاً. ومن ثم شن حرباً على خوارزم. وفي بداية ربيع ١٢٠١م، احتل مرو واعطاها لهندو ـ خان، ثم، دون اراقة الدماء، احتل سيراخس ونسى، واعطاهما كإقطاع لابن عمه الأمير زانغي. وبعد مقاومة قصيرة احتل طوس، ثم في ابريل ١٢٠١م، احتل نيسابور، مركز خراسان.

وقبيل ربيع ١٢٠١، نجح الخوارزمشاه، قطب الدين محمد، في تعزيز الأوضاع الداخلية الى حد ما. وفي صيف العام نفسه حشد جيشاً وسيَّره الى خراسان. وفي اغسطس ١٢٠١م، حاصر مدينة هرات، بيد أنه أخفق في احتلالها. وبعد ذلك التقى بقوات شهاب الدين الغوري المتجهة لمساعدة هرات على ضفة

وبعد تفتت شوكة الغوريين وانكسارها وفقدانهم لنفوذهم، قرر الخوارزمشاه تصفية حساباته مع الكاراكيتاي، فسير من هرات جيشاً إلى بلخ المجاورة لحدود الكاراكيتاي. الا ان عماد الدين عمر، والي الغوريين في بلخ، اختبأ بادئ الأمر، في القنطرة وقاومه، ولكن حينما لم يهب أحد لنجدته ومساعدته، اضطر الى الاستسلام للخوارزمشاه.

كانت بلخ آخر معقل للغوريين في خراسان، وبسقوطها سقطت دولة الغوريين. وضمت هرات وبلخ الى دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين.

وبعد بلخ، استولى الخوارزمشاه على ترمذ، التي تعد من أكبر المراكز الاقتصادية والثقافية في ما وراء النهر، وأعطاها لعثمان، حاكم سمرقند، ثم استولى على تولكان، ميمنة، أندخود والنواحي التابعة لها. وبعد ذلك كله، خضع له سلطان محمود آخر السلاطين الغوريين، وفي فيروزكوخ، خطب باسم الخوارزمشاه وصكت النقود باسمه ايضاً. وفي العام ١٢٠٦م، أخضع الخوارزمشاه اسفيزار ومازانداران، وعين أخاه علاء الدين محمد تاج الدين علي شاه.

بعد القضاء على الغوريين، باشر الخوارزمشاه عملياته العسكرية لاخضاع ما وراء النهر، وكان قبل ذلك قد قام بتعزيز خطوطه الخلفية وذلك باحتلال مناطق وأقاليم هرات، وجام، وزاوزان، ومرو، وسيراخس وغيرها من المناطق والأقاليم الغورية، وتعيين حكامه عليها وإقامة الحاميات. ولكن سرعان ما حاول هؤلاء الحكام أو الولاة الانفصال، بَيْدَ انهم قمعوا فوراً.

والذريعة لمهاجمة ما وراء النهر وجدت فوراً، ففي ربيع العام نفسه ١٢٠٧م، استنجد عثمان، حاكم سمرقند، في نضاله ضد ظلم الكاراكيتاي بالخوارزميين. وقد تزامن وصول مبعوثي عثمان الى عاصمة خوارزم مع وصول رسل الصدور البخاريين، الذين جاؤوا يطلبون العون لمساعدتهم في عزل المغتصب سانجار. وسار الخوارزمشاه بقواته الى سمرقند وبخارى. وبمساعدة الوجهاء وعلماء الدين وتعاونهم، استولى الخوارزمشاه على بخارى وقضى على تمرد سانجار. ونقل ٢٦

الدين بيلغا ـ خان، حاكم اترار، عثمان ـ حاكم سمرقند، والوالي الكاراكيتائي في تاراز تويانكو، الذين وصلوا الى المدينة حينما اجتاز الغوريون مجرى النهر وباشروا بالانقضاض عليها. وجرت بين شهاب الدين الغوري وبين الخوارزمشاه وحلفائه، في ٢٨ سبتمبر ١٢٠٤م، معركة أسفرت عن تدمير قوة الغوريين تدميراً تاماً، وعودة الخوارزمشاه الى غورغيانج بالغنائم الكثيرة والأسرى. أما الكاراكيتائيون، فتعقبوا الغوريين حتى اندخودا، حيث لجأ شهاب الدين الغوري الى قلعتها للإحتماء بها. فقام الكاراكيتائيون بتطويق القلعة، ولم ينقذ الغوري من عار الهزيمة والفضيحة سوى عثمان، حاكم سمرقند، الذي لم يرغب في وقوع إنسان مسلم في أيدي الكفار، فتوسط بين الطرفين وأزال ما بينهما من عداوة. ونال الكاراكيتائيون خزينة شهاب الدين الغوري الغنية وأملاكه ومؤونته. وفي يناير ١٢٠٥م، عقدت اتفاقية سلام أخرى مع الخوارزمشاه. وبموجب الاتفاقية تعهد السلطان شهاب الدين بأن يعيد الى الخوارزمشاه جزءاً من خراسان مع مرفْرود، وبأن تكون قواته رهن اشارته (أي اشارة الخوارزمشاه).

ومنذ ذاك الحين (عام ١٢٠٥م)، دبت الفوضى في غور بشكل استحال معه السيطرة عليها: فولاة الأقاليم أعلنوا استقلالهم، ونهبت خزينة الدولة. وفي ١٣/مارس/١٢٠٦م، اغتيل السلطان شهاب الدين الغوري في مؤامرة. وبعد ذلك ـ نقلاً عن الجويني ـ تفتتت دولة الغوريين الى دويلات صغيرة. وفي دلهي أعلن الاستقلال قطب الدين ايبك، مؤسس سلالة المعزين او السلاطين المماليك، الذين حكموا شمال الهند (١٢٠٦ ـ ١٥٥٥م)، وفي لاهور ومولتان رفع راية الاستقلال الزعيم ناصر الدين كاباتشا، وفي زابوليستان وغزنة تاج الدين ايلديز. اما ابن السلطان غياث الدين محمد وخليفته، فلم يبق في أيديهما سوى فيروزكوخ، وفي هرات انفرد بالحكم عزالدين حسين، الوالي السابق للغوريين.

ولم تمض مدة طويلة ـ في العام ١٢٠٦م على ما يبدو ـ حتى انتقلت هرات الى حكم الخوارزمشاه. وبما أن ذلك تم بفضل عز الدين حسين نفسه، فقد منحه الخوارزمشاه ضيعته، ولكن شريطة أن يكون تابعاً له.

وفي عام ١٢٠٩م، بلغ نضال الخوارزمشاه ضد الكاراكيتاي مرحلته الأخيرة الحاسمة. وتكمن المسألة في أن مندوبي الغورخان، القادمين من أجل الإتاوات (كانت خوارزم تدفع الإتاوات للكاراكيتائيين منذ عهد اتسيز)، كانوا يزدادون وقاحة ويتصرفون بتحدٍ وغطرسة. لقد آن الاوان للتخلص من استعمار الكاراكيتاي. وكان الشعب مستاءً ساخطاً على الكفار ويؤيّد الخوارزمشاه، الذي استغل هذه الفرصة الملائمة في ربيع عام ١٢٠٩م، وسيّر جيشاً الى ما وراء النهر، وقد نشبت معركة بين الخوارزمشاه والكاراكيتائيين في شهر سبتمبر ١٢٠٩م في سهل «ايلاميش» الواقع على ضفة نهركارا ـ داريا. قاد قوات الكاراكيتائيين القائد المشهور تايانكو، وكانت المعركة ضارية، وانتهت بهزيمة الكاراكيتائيين، وبفوز الخوارزمشاه بكميات كبيرة من الغنائم، إضافة إلى عدد كبير من الأسرى، كان بينهم الأمير تايانكو. إن تدمير الكاراكيتاي أفسح للخوارزمشاه في المجال لتوسيع حدود البلاد شرقاً حتى اوزغيند، وتاراز واسفيجاب.

بعد الهزيمة التي لحقت بهم في سهل «ايلاميش»، تقهقر الكاراكيتاي الى بالاساغون سالبين وناهبين ومدمرين كل ما يصادفهم في طريقهم. الا أن سكان بالاساغون ووجهاءها أقفلوا بوابة المدينة ولم يسمحوا لهم بالدخول، لكنهم احتلوا المدينة بعد حصار دام اسبوعين، وعملوا فيها سلباً ونهباً.

دامت دولة الكاراكيتاي سنتين أخريين، ومن ثم قضى عليها الخان النايماني المشهور كولشلوك (انظر الفصل التالي).

ورغبة في تقوية نفوذه في ما وراء النهر، قرر مصاهرة حاكمها عثمان، وزوجه إبنته خان ـ سلطان. إلا أنه رغم ذلك لم يثق بصهره ثقة تامة، فأسس «مشيخة» في سمرقند، وعهد بهذا المنصب الى الأمير دورت ـ آبا ـ أحد الأمراء المقربين اليه ـ وعلاوة على ذلك، حينما قدم الخان عثمان عام ١٢٠٩م بصحبة حاشية الخوارزمشاه الى غورغيانج ضيفاً، اضطروه إلى البقاء مدة سنة كاملة، ونتيجة لإصرار توركان ـ خاتون ـ والدة الخوارزمشاه ـ وتذرعها بالعادات والتقاليد التركية التي تفرض ذلك. وفي تلك الفترة، شن الخوارزمشاه حملة جديدة

من زعماء المتمردين مع قائدهم الاعلى الى خوارزم، وبعد ذلك، اتفق خوارزمشاه وعثمان على سبل مواصلة النضال ضد الكاراكيتائيين.

ولمحاربة الخوارزمشاه، الذي كانت تتعاظم قواه، كان الغورخان الكاراكيتائي يعد العدة: لقد حشد عدداً كبيراً من الجند، ورشا عدداً من القادة الخوارزميين البارزين امثال ركن الدين، اسباخبيد كابودجام، والأمير دورت ـ آبا، شيخي سمرقند وغيرهم. وبموجب الاتفاقية، وفي حال الانتصار على الخوارزمشاه، كان الأول سينال خراسان، أما الأمير دورت ـ آبا فوعد بخوارزم. وبالفعل، في أثناء القتال، خان الأميران الخوارزمشاه وانضما الى صفوف الغورخان، ما ادى الى هزيمة الخوارزمشاه ووقوعه في الأسر.

وبسرعة، شاع نبأ انتصار الكاراكيتائيين وسبي الخوارزمشاه وعمّ الاقاليم والمناطق كافة، وبدأت الثورات وحركات التمرد والفوضى. وعلاوة على ذلك كله، فإن شقيق الشاه ونائبه في طبرستان، تاج الدين علي شاه، قد أعلن نفسه سلطاناً على دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين. وفي نيسابور، أعلن ايضاً الأمير كيزليك ـ خان استقلاله.

ولكن سرعان ما تمكن الخوارزمشاه من الفرار من الأسر وعاد الى خوارزم، وباشر فوراً بإعادة تنظيم أمور الدولة. وجمع شتات قواته وعبأ جنوداً جدداً، وبدون تباطؤ، سار الى خراسان. أما كيزليك، فما إن سمع باقتراب الخوارزمشاه حتّى فر الى العراق، ولكن ألقي القبض عليه وأعدم. أما بالنسبة لتاج الدين علي شاه، فلجأ الى السلطان محمود في فيروزكوخ. بعد الاستيلاء على نيسابور، واصل الخوارزمشاه زحفه الى هرات واحتلها في شهر يوليو ١٢٠٨م، بعد حصار طويل مرير دام سنة. ومن هناك أرسل الأمير ملك الى فيروزكوخ. واستسلم السلطان محمود بدون مقاومة، ونُقل مع تاج الدين علي شاه الى غورغيانج، حيث أعدما. ومع موت السلطان محمود، انتهت دولة الغوريين، أما خراسان بأكملها، ومن ضمنها أملاك الغوريين، فأعيد ضمها الى دولة الخوارزمشاهيين، اعتباراً من عام ١٢٠٨م.

الميدان الزراعي. فمثلاً كتب عنها المقدسي: «إن هذه المنطقة مشهورة بكثرة مدنها. وتتصل فيها البيوت والبساتين، وتكثر فيها الكروم، والمعاصر، والأراضي المفلوحة، والاشجار، والفاكهة وغيرها من الخيرات الطبيعية، انها مربحة لمن يزاولون التجارة... فهي كثيرة المساكن، اقنيتها غزيرة المياه، فيها احتياطات كثيرة من الأسماك والاغنام، انها منطقة تجارية للغور والاتراك». ومما ذكرناه أعلاه فبامكاننا استنتاج ما يلي: ١) خوارزم بلاد عريقة متحضرة، ذات اراضٍ زراعية، اشتهرت بالري، ٢) ـ زاول سكانها مختلف الحرف والمهن كالزراعة، وتربية الماشية، وصيد الأسماك والتجارة.

كان معظم الاراضي تابعاً للدولة ممثلة في شخص الخان وملاكي الأراضي الكبار. وكانوا يستثمرون أراضيهم بمساعدة فلاحي المحاصصة.

ومن حيث الانتماء الطبقي في خوارزم، في الفترة التي نحن في صددها، كانت الطبقات الموجودة هي طبقات الاقطاع الزراعي نفسها، التي كانت قائمة في عهد السامانيين(إذ ان خوارزم كانت آنذاك داخلة ضمن دولة السامانيين)، وهي: ١) ملك سلطاني (مملكة)، ٢) ملك خاص، ٣) أوقاف، ٤) مشاعية. ومن حيث مبدأ فرض الضرائب، كانت تنقسم الى: ١) (ملك ـ خراج) أي الاراضي الخاضعة لضرائب الخراج (وتشمل الملك السلطاني والأملاك الخاصة). ٢) الأملاك المعفية جزئياً او كلياً من الخراج وغيرها من الضرائب (تتضمن أراضي السادة وكبار علماء المسلمين).

ففي خوارزم (في الفترة ما بين ق «٩م» «١٢م»). كان نظام الهبة الاقطاعية المتبع شائعاً على نطاق واسع، وبموجبه تقدم الأراضي والأملاك الأخرى، المدن والمناطق للشخصيات المدنية والعسكرية البارزة، مقابل خدمات جليلة يقدمونها للعرش.

إضافة الى الخراج، كانت ثمة ضرائب طبيعية وغيرها: مواد غذائية او مؤن، وتعبئة اجبارية في المشاريع الانشائية: (إقامة الأقنية والشوارع والجسور والقصور والمساجد والمدارس الدينية والخانقاهات والخ..)، وتصليح القلاع

على الكاراكيتائيين. ولما وصل الى سمرقند ولم ير الوجهاء والسكان الشاه خان عثمان ضمن الحاشية، دبت الفوضى في المدينة وارتاب الجميع في الأمر، واخذوا يبدون عداءهم للخوارزمشاه، بصورة علنية، ما اضطر الأخير الى ارسال اناس الى غورغيانج لاحضار الزوجين ـ عثمان وزوجته ـ الى سمرقند. ولما عاد الخان عثمان الى سمرقند كان الخوارزمشاه قد غادر المدينة وترك فيها حامية خوارزمية. وبناءً على أمر الخان عثمان، قام السمرقنديون بتدمير الحامية، واعلنوا استقلالهم وبعثوا رسلاً الى الغورخان. تمكن خان ـ سلطان مع حاشيته من الابتعاد والتواري في القنطرة، والانتظار هناك حتى وصول قوات الخوارزمشاه الى المدينة. كان الخوارزمشاه على رأس الحملة التأديبية الى سمرقند، حيث عمل فيها نهباً وتدميراً مدة ثلاثة أيام. ونقلاً عن الجوزي، قتل ١٠٠٠٠ نسمة من السكان، وأعدم الخان عثمان. وكان ذلك في عام ١٢١٢م. وبموت عثمان انتهت سلالة القاراخانيين.

وفي عام ١٢١٥م، ضم الخوارزمشاه الى مملكته كيرمان وبيلدوجيستان وميكران. ثم اعترف الاتابك اوزبك (١٢١٠ ـ ١٢٢٥م) له بتبعية الحكم، وكان الاتابك هذا من الايلديغيزيين. وتفيد المصادر (ابن الأثير وغيره) أنه خطب باسم الخوارزمشاه علاء الدين محمد في عران واذربيجان وحتى في دربند وشروان. وهكذا بسطت دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين، في عهده، سلطتها على مساحة عظيمة من العراق واوزغيند وتاراز واسفيجاب، ومن بحر الآرال شمالاً حتى شواطئ المحيط الهندي جنوباً. إلا أن الخوارزمشاه لم يستطع القيام بأكثر من ذلك. فمثلاً لم يستطع تحقيق حلمه باجبار الخليفة الناصر على الاعتراف له بالسلطة على العالم الاسلامي، بل على العكس، سرعان ما اصطدم بجنكيز خان ـ السياسي البارز والقائد.

العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية ونظام حكم الخوارزمشاهيين

ان المعلومات التي وصلتنا عن الأوضاع الاقتصادية لخوارزم في الفترة من القرن ٩م الى القرن ١٢م، معلومات قليلة. ولكن، ومن خلال ما ذكره الجغرافيون العرب، باستطاعتنا الاستنتاج أن خوارزم كانت من أغنى البلدان وأكثرها تطوراً في

جاشنيغار ـ رجل القصر المسؤول عن نوعية المأكولات المقدمة على مائدة السلطان.

الفراش ـ المسؤول عن مستودع لوازم الفراش (السجاجيد، والخيام، وغيرها من لوازم الفراش) السلطاني.

علم دار ـ حامل علم الشاه أو السلطان. وكان يشرف على الفصيلة المسؤولة عن صيانة لواء السلطان وحمله.

داواتدار ـ (الترجمة الحرفية «مالك الحبر») سكرتير السلطان (الشاه).

إضافة إلى مناصب أخرى عسكرية ومدنية، ولكن لم تتوافر لدينا معلومات عنها.

والاسوار وترميمها وهَلُمَّ جَرًا...

نظام حكم الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين

بناءً على الدراسة التي أجراها الأكاديمي ز. م. نونياتوف، كان رئيس الدولة ـ الشاه او السلطان، يتمتع بالحقوق والسلطات كافة، ويأتي في المرتبة الثانية الوزير، الذي يدخل ضمن واجباته تمثيل الشاه في الاحتفالات الرسمية والمباحثات مع الحكام التابعين، والدول الأجنبية، والمحافظة على النظام العام في البلاد، والإشراف على عمل المؤسسات (الدواوين) الحكومية كافة. كذلك كان وزراء الولايات والأقاليم والدوائر يعدون من ذوي المناصب العليا.

وبعد الوزير، كان يأتي الحاجب (حاجب بوزورغ)، الذي كان يشرف على المراسم والتشريفات ويرفع التقارير الى الشاه (السلطان). وكان يتم اختياره لدى تعيينه، من بين وجهاء الأتراك العسكريين.

ونذكر من المناصب الاخرى التي كانت موجودة:

الأستاذ دار ـ المشرف على جميع الشؤون المتعلقة باسطبلات الخيول، والمطبخ، وأقبية الخمر، والمخبز والخ..

الميراخور ـ المشرف على اسطبل الخيول.

ميري شيكار ـ مدرب الصقور والمسؤول عن تنظيم الامور وترتيبها عند خروج الشاه الى الصيد.

تاشتدار ـ المشرف على أدوات الغسل في القصر.

شرابدار ـ المسؤول عن قبو ومستودع النبيذ وسائر المشروبات.

كيسادار ـ المسؤول الذي يدخل ضمن واجباته جمع الشكاوى والعرائض ورفع تقارير عنها الى السلطان.

الفصل الثامن

العلوم والثقافة في آسيا الوسطى ق ٩ ـ ١٢م

كانت الفترة من ق ٩ ـ ١٢م، بالنسبة إلى البلدان التي كانت في السابق داخلة ضمن الخلافة العربية، ومن ضمنها ما وراء النهر، مرحلة نهضة ثقافية عظيمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ففي هذه الفترة ازدهرت العلوم والثقافة على نطاق واسع، ولاسيما علوم الرياضيات، والفلك، والطب، والتاريخ، والفلسفة، والنحو والأدب. ولقد ترك لنا التاريخ عشرات الاسماء من علماء آسيا الوسطى البارزين أمثال الفلكي احمد الفرغاني (المتوفى عام ٨٥٠م)، وعالم الرياضيات محمد أبن موسى الفرغاني (٧٨٣ ـ ٨٥٠م)، والفيلسوف أبي نصر الفارابي (٨٧٣ ـ ٩٥٠م) والطبيب العلامة ابي علي ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م)، وعالم الموسوعات أبي ريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨م) والمؤرخ أبي بكر محمد النرشخي (٨٩٩ ـ ٩٥٩م)، أبي نصر العتبي (حوالى ٩٦١ ـ ١٠٢٢م)، أبي سعيد عبد الكريم سيعاني (١١١٣ ـ ١١٦٧م) ـ وواضع الموسوعات فخرالدين ابي عبدالله الرازي، والنحوي العلامة الزمخشري (١٠٧٥ ـ ١١٤٤م)، والفيلسوف بهاء الدين أبي محمد ثابت الحراقي، الذي عاصر السلطان اتسيز، واللغوي البارز محمود الكاشغاري (ولد في الفترة ما بين عامي ١٠٢٩ و١٠٣٨م) وكثيرين غيرهم من العلماء العظام، الذين نالت مؤلفاتهم شهرة عالمية كبيرة ولم تفقد قيمتها وأهميتها العلمية حتى يومنا هذا.

تجدر الاشارة هنا الى أن علماء آسيا الوسطى أسهموا إسهاماً فعّالاً في نشاطات المجمعين العلميين، في القرون الوسطى، وكذلك المجمع العلمي الخوارزمي

ومن الأعمال الهامة التي تعود الى قلم النسائي «السنن الكبرى»، ذلك الكتاب الذي أعاد تنقيحه في أثناء اقامته بمصر، وحذف منه الاحاديث غير الموثوق بها بحسب نظره وأصدر النسخة الأخيرة المنقحة لهذا الكتاب بعنوان «المجتبى»، وهي تحظى برواج شديد بين المحدثين.

توفي النسائي عام ٩١٥م في مدينة الرملة (في فلسطين) ودفن فيها.

كذلك كان ابو عيسى محمود بن عيسى بن ثور السلامي البوغي الترمذي (٨٢٤ ـ ٨٩٢م)، من أشهر علماء الحديث. ولد هذا المحدث الجليل في قرية «بوغ» الواقعة على بعد ما بين ٤٠ ـ ٥٠ كلم من مدينة ترمذ، التي بنيت بالقرب منها شيراباد في القرن «١٨م». تلقى الترمذي مبادئ علومه الاساسية في ترمذ، التي كانت آنذاك أحد المراكز الاقتصادية والروحية والثقافية في بلاد ما وراء النهر، ودرس علوم الحديث على أيدي معلميه الامام أبو عبد الله محمد البخاري، قتيبة بن سعد، اسحق بن موسى، محمد بن المثنى.

ولأبي عيسى محمد الترمذي الكثير من المؤلفات في الفقه والحديث والتاريخ. ومن أهم أعماله التي جلبت له الشهرة كتاب «السنن» والمعروف ايضاً بعنوان «الجامع الصحيح»، «جامع الترمذي» ومجرد «الصحيح». وفي مؤلفاته، علاوة على الأحاديث، فصول خاصة مكرسة للفقه الاسلامي، وسير حياة الأولياء المسلمين ومناقبهم، وتفسير للقرآن الكريم. كذلك ألّف الترمذي، بالاضافة الى «السنن»، مجموعة أخرى من المؤلفات، مكرسة لمسائل الفقه والتاريخ، وهنا يجدر بنا ان نذكر منها: «كتاب العلل»، «كتاب التاريخ»، «كتاب الشمائل النبوية»، «كتاب الزهد» وغيرها.

ومن أشهر محدثي ما وراء النهر، والعالم الاسلامي، نذكر الإمام الجليل البخاري (اسمه الكامل ـ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري، ٨٠٩ ـ ٨٦٩)م. وكان والده الشيخ اسماعيل رجلاً متعلماً غنياً، ذا اطلاع جيد على الحديث، يمتهن التجارة. تمكن من تعليم ابنه تعليماً جيداً. كما إن أبا عبدالله نفسه كان موهوباً منذ نعومة أظافره، وذا قابلية جيدة، باشر بتعلم اللغة العربية والحديث وهو في العاشرة من عمره. وكان أول معلميه في الحديث عالميْ الحديث

الذي أنشىء في عهد الخوارزمشاه الأخير أبي العباس المأمون الثاني (المقتول في عام ١٠١٧م)، ومجمع بغداد العلمي الذي أقيم في زمن الخليفة العباسي المأمون (٨١٣-٨٣٣م).

لقد أنجبت ما وراء النهر للعالم أئمة علماء الدين والمحدثين والفقهاء الذين ذاعت شهرتهم في العالم، وبالمناسبة نود الاشارة الى العالم الجليل والشاعر المشهور رشيد الدين الوطواط («١١١٤ - ١١١٦» - «١١٨٢ - ١١٨٣»)، الذي وضع، علاوة على رسالته الأدبية «حدائق السحر في دقائق الشعر»، أربع رسائل قيمة مكرسة للخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر، عمر، عثمان وعلي: «تحفة الصديق الى الصديق من كلام أبي بكر الصديق»، «فصل الخطاب من كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، «انيس الإلفان»، «مطلوب كل طالب من كلام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب»، سراج الدين بن عثمان الاوشي الأوزجندي (المتوفى ١١٧٣م) مؤلف «غرر الأخبار»، والكتاب عبارة عن مئة خبر من الأخبار المتعلقة بمشاهير رجالات الاسلام، ومن مفسري القرآن، نذكر منهم الشيخ أبا نصر أحمد البخاري (المتوفى في النصف الاول من القرن «١٢م»)، مؤلف «تفسير الزاهد»، ناجي الدين، أبا حفص عمر النسفي (المتوفى ١١٤٢م)، الذي ترك للأجيال اللاحقة مؤلفه القيم «تفسير في تفسير»، وأبا القاسم محمود الزمخشري السالف ذكره (المتوفى عام ١١٤٤)، مؤلف كتاب «الكشاف» ذا الشهرة الكبيرة.

ومن المحدثين نذكر النسائي، أبا عيسى محمد الترمذي، الإمام البخاري وعبد الرحمن السمرقندي، الذين نالت أعمالهم شهرة عالمية:

النسائي: (٨٣٠ - ٩١٥م) من مدينة نسى الصغيرة مساحة، ولكن العريقة والمشهورة تاريخياً، والواقعة على بعد ١٨كلم عن مدينة عشقباد حالياً، الى الجهة الشمالية الغربية. ولقد قام النسائي بالكثير من الرحلات طلباً للعلم، وكثيراً ما توقف في بلخ، العراق، سوريا والحجاز. ومن المحدثين الذين تتلمذ النسائي عليهم نذكر قتيبة بن سعيد البلخي، اسحق بن حبيب، اسحق بن موسى، ابراهيم بن سعيد، علي بن حجر وغيرهم.

الاشربة». «كتاب الضعفاء»، «اسامي الصحابة»، «كتاب الكنى» وغيرها.

إلا أن أشهر مؤلفاته وأكثرها انتشاراً هو «الجامع الصحيح» الذي يضم ٧٢٥٠ حديثاً.

وترك الامام البخاري من بعده، علاوة على كتبه ومؤلفاته الكثيرة، تلاميذ من أشهرهم: الشيخ محمد بن يوسف الفراتري (٨٤٥ ـ ٩٣٢م)، أبو علي صالح بن محمد البغدادي (٨٢٠ ـ ٩٠٥) وعمرو بن فلاّس.

كما نود الاشارة ببضع كلمات عن عالم حديث آخر مشهور ممّن أنجبتهم بلاد ما وراء النهر، ألا وهو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي السمرقندي (٧٨٥ ـ ٨٦٨م)، الذي كان من أئمة علم الحديث، والذي وضع اضافة الى كتابه «المسند» الذي يشغل مكانة خاصة رفيعة بين كتبه الستة «كتاب ستة»، وإلى قلمه يعود عدد من المؤلفات المهمة مثل: «تفسير القرآن»، «الجامع» وغيرهما.

كذلك أنجبت ما وراء النهر فقهاء بارزين، بلغنا أسماء زهاء ثلاثين منهم، نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد بن محمد البخاري (المتوفى عام ١١٢٨م)، صاحب كتاب «خزينة الفتاوى»، حسان الدين عمر بن عبد العزيز بن معاذ البخاري (المقتول عام ١١٤١)، الذي ترك من بعده مؤلفين ثمينين في الفقه: «كتاب الواقية» و«جامع السِّيَر»، ناصر الدين أبو القاسم محمد السمرقندي، (والمتوفى عام ١١٦١)، مؤلف كتاب «ملتقات النصير»، فخرالدين حسان بن منصور الاوزجاندي (المتوفى عام ١١٩٦)، الذي ترك من بعده «فتاوى قاضي خان» الذي يعد من المؤلفات المهمة جداً في الفقه، وأخيراً الفقيه البارز برهان الدين المرغلاني (المتوفى عام ١١٩٦م)، الذي وضع كتاب «الحداد» ذا الشهرة الواسعة في العالم الاسلامي، والذي يعد من الآثار العلمية النفيسة الفريدة حتى في يومنا هذا.

وكما هو معلوم، إبان حكم القاراخانيين، ازداد دور الاسلام وتأثير علم الكلام في الوعي العام. كما ازداد، طبعاً، تأثير علماء المسلمين في الحياة الاجتماعية السياسية للبلاد. وفي تلك الفترة بالتحديد، انتشرت الطرق او الاتجاهات الصوفية

البخاريين، محمد بن سلام بايقندي (٧٧٧ ـ ٨٣٩م) وعبد الله بن محمد الجعفي (المتوفى عام ٨٤٣م). ولما بلغ السادسة عشرة، سافر مع والدته (يبدو ان والده كان قد توفي آنذاك) وأخيه أحمد الى الأراضي المقدسة (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، بلخ، مرو، نيسابور، البصرة، الكوفة، بغداد، حمص (كوميس)، دمشق، فلسطين ومصر، حيث كانت له لقاءات مفيدة مع المحدثين المشهورين، فجمع الأحاديث. وأقام فترات طويلة في بعض المدن التي زارها: الحجاز والبصرة ونيسابور، فمثلاً، عاش ستة أشهر في الحجاز، وخمس سنوات في البصرة حيث قام بتدريس الحديث فيها.

بعد نيسابور، عاد الامام البخاري الى موطنه بخارى، حيث كرس معظم أوقاته في تدريس الحديث. إلا أنه اضطر إلى مغادرة بلده بخارى، على أثر القطيعة التي وقعت بينه وبين الامير خالد بن احمد الذهلي، والي بخارى، الذي طلب من الإمام البخاري الحضور الى القصر لتدريس أولاده (موظفي القصر ـ بحسب رواية أخرى) «الجامع الصحيح». فرفض الامام البخاري قائلاً: «اني لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين، فان كانت له حاجة الى شيء منه فليحضر أولاده (موظفيه حسب الرواية الاخرى) الى مسجدي او داري». كان للإمام البخاري خصوم وحساد بما فيه الكفاية، وكانت مشكلته مع الأمير القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير، فاضطر أو أجبر على الخروج من بخارى والاتجاه نحو سمرقند حتى بلغ قرية خرجينت، التي تبعد عن سمرقند مسافة ١٨كلم. فمرض وتوفي فيها في ٣١ اغسطس ٨٦٩م، ودفن هناك وما يزال ضريحه حتى الآن يكرمه المسلمون.

اشتهر الامام البخاري بسعة حفظه للاحاديث النبوية، فروي انه حفظ ١٠٠٠٠٠ حديث صحيح و٢٠٠٠٠٠ غير صحيح او صحيح والعلم عند الله وحده.

ومن آثار الإمام البخاري انه ترك من بعده زهاء ٢٠ مؤلفاً في الحديث وعلوم الحديث والتاريخ. ونقلاً عن العالم الاسلامي والفقيه البارز شمس الدين باباخانوف تعود لقلم الامام البخاري المؤلفات التالية: «الجامع الصحيح»، «التاريخ الكبير»، «التاريخ الصغير»، «الف الصلاة»، «الأدب المفرد»، «التاريخ الأوسط»، «الجامع الكبير»، «كتاب الهبة»، «المسند الكبير»، «كتاب الدِّلال»، «بر الوالدين»، «كتاب

الحياة» لفخر الدين علي بن حسين الواعظ الكاشفي (١٤٦٣ ـ ١٥٣٣م).

وكما أشير آنفاً، كان خوجا أحمد يساوي (المتوفى بين عامي ١١٦٦ ـ ١١٦٧م) من التلامذة المقربين للهمذاني، ومن الشيوخ الصوفيين البارزين، وشاعراً، ومؤسساً للطريقة اليساوية. ولد في آسيا الوسطى في مدينة ساريام (سايرام) التي كانت تعد من المدن الكبيرة آنذاك وتشتهر ايضاً بـ «اسبيجاب»، في اسرة الشيخ ابراهيم ـ آتا وبيبي عائشة (كاراساتش ـ آتا). تلقى مبادئ العلوم الاولية في سايرام على العالم شهاب الدين اسبيجاب، وأهداه الى «الطريقة» الشيخ التركي البارز أرسلان باب. بعد وفاة الأخير، سافر خوجا أحمد يساوي الى بخارى حيث التحق بخدمة يوسف الهمذاني، المذكور آنفاً ومؤسس طريقة خوجاغان، وأتم بإشرافه دراسته في التصوف. ويعتبر خوجا احمد يساوي الخليفة الثالث لخوجا يوسف الهمذاني بعد عبد الله باركي وخوجا حسان انداكي، الذي احتل مكانه بعد وفاة معلمه، ومع مرور الزمن عهد بتلامذته (خلفه) ومسكنه (خاناقاه) إلى خوجا عبد الخالق الغيجدوفاني (المتوفى عام ١١٢٠) وعاد الى مدينة يس (تركستان ـ حالياً)، حيث أمضى بقية حياته.

وشأنه شأن معلمه خوجا يوسف الهمذاني، لم يسْعَ خوجا احمد يساوي إلى جمع الثروة والأموال، ولحياة الرفاهية، بل عاش حياة بسيطة متواضعة وفقيرة، وكرس اشعاره للدعوة الى الصدق والعدل والصبر والنزاهة والامانة.

وذاع صيت خوجا أحمد يساوي على نطاق واسع كشيخ صوفي جليل وشاعر واعظ موهوب عبقري. وكان ديوانه «ديوان الحكمة» ذا شهرة عالمية، وقد صدر غير مرة وافضل اصداراته تعد طبعة قازان (١٨٩٦م) والطبعة التركية (١٩٨٣م). وتعد أشعار المفكر العظيم نموذجاً للغة الاوزبكية القديمة والشعر التركي في الفترة ما بين القرنين ١٠ ـ ١٢م.

وعلاوة على «ديوان الحكمة»، ترك خوجا أحمد يساوي من بعده الكثير من تلامذته الموهوبين العباقرة أمثال: منصور ـ آتا (المتوفى عام ١١٩٨م)، عبد المالك ـ آتا ، تاجخوجا ـ آتا (المتوفى عام ١٢٢٠م)، زانغي ـ آتا (المتوفى عام ١٢٥٨م) وحكيم ـ

في بلاد ما وراء النهر، تلك الاتجاهات التي ظهرت فى أواسط القرن الثامن في سوريا والبلدان العربية الأخرى.

ويعد مؤسس المدرسية الصوفية في آسيا الوسطى، التي مثلت أحد الاتجاهات الصوفية «الاتجاه النقشبندي»، الرجل التقي الورع المتصوف يوسف الهمذاني، الذي كان يعمل حذّاءً. ولقد ساهم يوسف الهمذاني، بالاشتراك مع تلامذته خوجا احمد يساوي وخوجا عبد الخالق غيجدوفاني، وبهاء الدين النقشبندي، مساهمة كبيرة فعالة في اقامة الطريقة النقشبندية ونشرها.

حياة يوسف الهمذاني (١٠٤٨ ـ ١١٤٠م)، الشخصية الصوفية اللامعة، والمؤسس الروحي لطريقة خوجاغان. هو من قرية بوزانجار التابعة لهمذان. سافر في الثلاثين من عمره الى بغداد حيث درس علوم الفقه على الفقيه المعروف أبي اسحق، ثم أكمل علومه في مبادئ الفقه والدين في أصفهان وبخارى. وبالتالي اشتهر في العراق وخراسان وما وراء النهر وخوارزم. ونال لقب صوفي من الشيخ عباد الله عبدالله الجويني والشيخ حسن السمناني وأبي علي الفرمادي.

كان الهمذاني متضلّعاً من علوم الظاهر والباطن. عاش في بخارى وسمرقند ومرو وهرات، وكرس أوقاته كلها لتعليم تلامذته المبادئ الصوفية. توفي في الطريق في أثناء عودته من هرات الى مرو، حيث دفن هناك. وبعد مرور فترة من الزمن، قام ابن النجار ـ أحد مريدي الهمذاني ـ بجلب جثمان معلمه الى مرو حيث دفنه.

إن فضل الهمذاني على الطريقة النقشبندية، عظيم جداً، إذ انه أعد الكثير من تلامذتها، وأرسى المبادئ الروحية للطريقة.

كان للهمذاني عدد كبير من التلاميذ. وأبرزهم خوجا عبدالله باركي، وخوجا حسان انداكي، وخوجا احمد يساوي، وخواجا عبد الخالق غيجدوفاني.

ثمة معلومات قيمة عن حياة الهمذاني ونشاطاته وافكاره وردت في «كتاب الأنساب» للسمعاني (رسالات صاخبة)، في «رسالة» لعبد الخالق غيجدوفاني، و«فصل الخطاب» لخوجا محمد بارس (المتوفى عام ١٤١٣م) و«رشحات عين

١) التوبة الصادقة والحب لله، ـ ٢) الزهد في الدنيا، ـ ٣) التوكل على الله، ـ ٤) القناعة، ٥) العزلة ـ ٦) ملازمة الذكر، وذكر الله دائماً، الله سبحانه وتعالى الذي يجنب الانسان الخصال القبيحة كالحقد والحسد والرياء، ـ ٧) الوجد الى الله، ـ ٨) الصبر على الآلام والتغلب على الشهوات. ـ ٩) التأمُّل، ـ ١٠) الرضا.

كانت تعاليم نجم الدين الكبري قد تخطت حدود آسيا الوسطى، وبلغت خراسان، والهند وحتى الحدود الغربية لآسيا. وكان لديه عدد كبير من التلاميذ، من اشهرهم: سعد الدين حموية (المتوفى عام ١٢٥٢م)، نجم الدين داية الرازي (المتوفى عام ١٢٥٦م) وسيف الدين بوخارزي (المتوفى عام ١٢٦١م).

في الفترة ما بين القرنين ٩ ـ ١٢م، في ما وراء النهر وخوارزم، كان الادب (الشعر) متطوراً، وظهر العديد ممن كتبوا أعمالهم باللغات العربية والفارسية والتركية في بخارى، وسمرقند، ومرو، ونيسابور، وبلخ، وغورغيانج، وخيوة، وفرغانة ومدن ما وراء النهر وخوارزم الأخرى، وحظي كثيرون منهم بشهرة عالمية، أمثال: روداكي (٨٥٠، ٨٦٠ ـ ٩٤١م)، شهيد البلخي (المتوفى عام ٩٣٧م)، دقيقي (ق ـ ١٠م)، الثعالبي (٩٦١ ـ ١٠٣٨م)، نظامي عروضي السمرقندي (بعد ربع ق ـ ١١و النصف الاول من ق ـ ١٢م)، رشيد الدين الوطواط (١٠٨٨ ـ ١١٨٢م)، أسير الدين اخسيكاتي (المتوفى عام ١١٧٤م)، ظاهر الدين الفاريابي (١١٦٠ ـ ١٢٠٢م)، أديب الخوارزمي (المتوفى عام ١١٦٥م)، يوسف خاس حاجب البالاساغوني (١٠١٩. توغيلجان)، أحمد يوغناكي (ق ـ ١٢ بداية ق ـ ١٣م) وغيرهم.

في الفترة الآنفة الذكر، أقيمت في مدن ما وراء النهر وخوارزم بنايات فخمة: قصور، ومساجد، ومدارس، وضرائح، ومآذن وهَلُمَّ جرًا. ومن الآثار المعمارية (ق ٩ ـ ق ١٢م) لم يصلنا سوى القليل. ولكنها رغم قلتها، تشير الى تطور الفن المعماري وازدهاره وقدرة معماريي ما وراء النهر وخوارزم على إنشاء مدرستهم المعمارية وأسلوبهم في فن البناء، مما أكسبهم الشهرة في أنحاء العالم كافة. ومن هذه الآثار نذكر، على سبيل المثال: ضريح السامانيين الرائع المشهور في مدينة بخارى (ق ـ ٩ ـ

آتا (المتوفى ١١٨٦م)، والذي كان يغلب على شهرته اسم سليمان باكيرغني، كما كان ديوانه «كتاب باكيرغني» مشهوراً ايضاً مثل «ديوان الحكمة» لاحمد يساوي ذي الشهرة العالمية في العالم الاسلامي.

نجم الدين كبري (١١٤٥ - ١٢٢١م)، الشخصية الصوفية البارزة في آسيا الوسطى، ومؤسس الطريقة الكبروية. إسمه الكامل: احمد بن عمر ابو الجناب نجم الدين الكبري الخوارزمي. من خيوة أصلاً. كانت له رحلات كثيرة زار فيها مصر واذربيجان وايران، حيث أكمل دراسته في المعارف الصوفية، وكسب الكثير من المريدين.

ففي مصر مثلاً، تتلمذ على روزبيهان الوزان المصري (المتوفى عام ١١٨٩م)، وفي تبريز، على أبي منصور حافظ، وبابا فرج التبريزي، وعمار بن ياسر البدليسي (المتوفى - عام ١١٨٧م)، وفي همذان، على اسماعيل الكيسري (المتوفى - عام ١١٩٣م) في ديزفول. وفي العام ١١٨٥م، عاد الى خوارزم حيث اسس الطريقة الكبروية. قتل نجم الدين الكبري عام ١٢٢١م، حينما حاصرت قوات جنكيزخان المغولي غورغيانج.

يعد نجم الدين الكبري من المنظرين الصوفيين البارزين، وآراؤه في التصوف، ومن ضمنها طريقته الكبروية، مدرجة في مؤلفاته «فوائح الجمال وفواتح الجلال»، «الاصول العشرة»، «رسالة الخائف الهائم من لومات اللائم»، «رسالة الشيخ نجم الدين كبري»، «رسالة من مؤلفات الشيخ نجم الملاّت والدين كبري».

فالانسان، بحسب تصور نجم الدين الكبري، عبارة عن صورة مصغرة للعالم تحتوي على كل ما يحتوي عليه العالم الأكبر، أي أنه يحتوي على الميزات الالهية كافة، ما عدا ميزة «الله الرحمن الرحيم». ولمجرد بلوغ المريد ذلك يكتسب ميزات الهية معينة. لذا، عليه التقيد بدقة وصرامة بأصول هذه الطريقة وقواعدها، وأن يصوم ويخضع ارادته كلياً لارادة الشيخ. لقد صاغ الشيخ نجم الدين الكبري عشرة مبادئ للطريقة الكبروية تؤدي الى نيل رضا الله:

الفصل التاسع

آسيا الوسطى ابان حكم جنكيزخان وسلالته

١ ـ غزوات جنكيزخان وتأسيسه دولة المغول

نتيجة للحروب الكثيرة الضارية التي شنها جنكيزخان (١١٥٥ ـ ١٢٢٧م)، ضد القبائل التترية ـ المغولية[١] في منغوليا، وضد شعوب سيبيريا والتاي وايغوريا[٢] الناطقة باللغة التركية، أي الكارلوك والنيمان والقيرغيز والإيغوار وغيرهم، في الفترة من العام ١١٨٨ إلى ١٢٠٦، تمكن من اقامة دولة اقطاعية جديدة، كتب لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ شعوب آسيا المركزية والوسطى والصين وإيران وأفغانستان وأذربيجان والعراق وروسيا وجنوب شرقي أوروبا. وبالتالي، وفي الفترة ما بين ١٢٠٥ ـ ١٢٢٧م، قضى جنكيزخان على دولة سي ـ

---

١ ـ «التتر» و«المغول» تسميتان مترادفتان. فحتى القرن ـ ١٢م كانت كل القبائل التركية المغولية القاطنة في منغوليا الشرقية تعرف بالتتر، ومنذ بداية القرن ـ ١٣م، ومع ازدياد عظمة المغول اكتسبت تسمية عامة مشتركة: «مغول». وحري بالذكر أن كتاب الشرق قسموا التتر الى ثلاث مجموعات عرقية: «بيضاء»، «سوداء»، «بربرية». أطلقت «البيضاء» على التتر الرحل القاطنين جنوب سهوب «غوبي» والذين كانوا في خدمة تشجورتشجيني. وكانت غالبيتهم العظمى من قبائل الـ «اونغوت» التركية والـ «كيدان» المغوليين. أما «السوداء» فهي القبائل التترية مثل الـ «كيرايت والنيمان» المتنقلة ما بين جبال الصين وشرقي تركستان، أما «البربرية «فهي قبائل الميركيت (او ـ ميكريت) أويرات واوريانخاي، التي عاشت في جنوب سيبيريا.

٢ ـ ايغوريا: حسب المعطيات التاريخية، تطلق على شمال شرقي تركستان حيث تقع مدن كاشغار، تورفان، كاراخوجا، كومول (او خامي كما ورد لدى المؤرخين الصينيين) والمناطق الممتدة جنوب شرقي مدينة «كولجي».

ق ١٠م)، وخان رباط مالك بالقرب من مدينة نوائي الحالية (تقريباً ق ١١م)، ومسجد كالان في بخارى الذي تم بناؤه في عهد الحاكم القاراخاني أرسلان خان محمد بن سليمان (١١٠٢ ـ ١١٣١م) عام ١١٢٧م. وجدير بالذكر ان ارسلان خان هذا قد أجرى اصلاحات كثيرة في بخارى والمدن المجاورة لها. ففي عهده تم بناء أسوار مدينة بخارى، وتشييد القصر القائم في حي دروزة بالقرب من بوابة سعد أباد، كما تم اصلاح قلعة بخارى، وإجراء بعض الترميمات في بيكند العريقة. ومن الآثار المعمارية النادرة (ق ٩ ـ ق ١٢م) في بلاد ما وراء النهر، نذكر: المآذن الرائعة في قرية وابكينت (٢٥كلم عن بخارى)، التي شيدها صدر بخارى برهان الدين عبد العزيز ـ في العام ١١٩٨ ـ ١١٩٩م، ونامازغاخ بخارى (١١١٩ ـ ١١٢٠م)، مئذنة جاركورغان (محافظة سورخانداريا ١١٠٨ ـ ١١٠٩م)، برج بوران المشهور في سيميريتشي، ضرائح اوزغيند المشهورة، التي شيدت في عهد القاراخانيين في ق ١١ ـ ق ١٢م، ومجمع شاه زندا الأثري على المنحدر الجنوبي لافراسياب، الذي بوشر ببنائه في نهاية القرن ـ ١١م. ومن آثار خوارزم المعمارية العائد تاريخها الى ق ١١م ـ بداية ق ١٣م، والتي ما زالت قائمة، نذكر: ضريح فخرالدين الرازي (المتوفى عام ١٢١٠م) والخوارزمشاه تيكيش.

وكما يلاحظ من المعطيات الأثرية، فإن فن الرسم على الأواني المنزلية والحلي وأدوات الزينة كان قد قطع آنذاك شوطاً كبيراً في ميدان التطور. وفي هذا الصدد لدينا آثار مادية عثر عليها علماء الآثار في منطقة ما وراء النهر، وهي عبارة عن جرة فضية عليها صورة جمل مجنح (ق ٨ ـ ٩ م)، آنية من فضة عليها صورة ملك متربع على عرشه (ق ٨ ـ ٩م)، تماثيل واشكال برونزية (ق ٨ ـ ٩م)، كأس وإناء زهور من الخزف (ق ٩ ـ ١٠ م)، نوط زجاجي (ق ٨ ـ ٩م)، رأس ثور زجاجي ايضاً، وكؤوس وجرار مصنوعة من زجاج أزرق اللون، حِق صغير من البلور، مرآة برونزية (ق ـ ١١م) وأشياء أخرى كثيرة .